

ابن خلدون

حياته وراثته الفكرية

تأليف

محمد عبد الله عنيان

المحامي

[الطبعة الأولى]

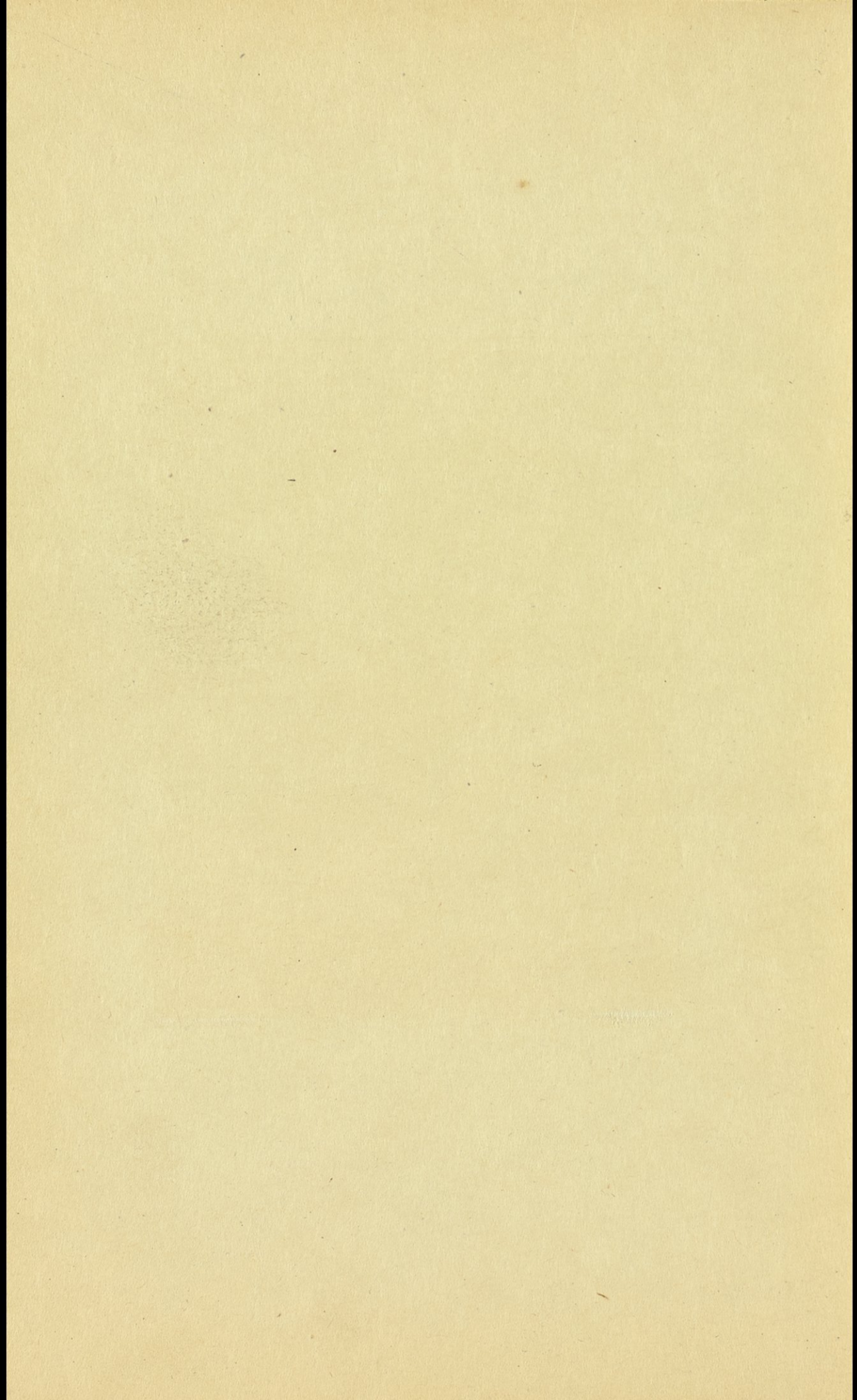
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

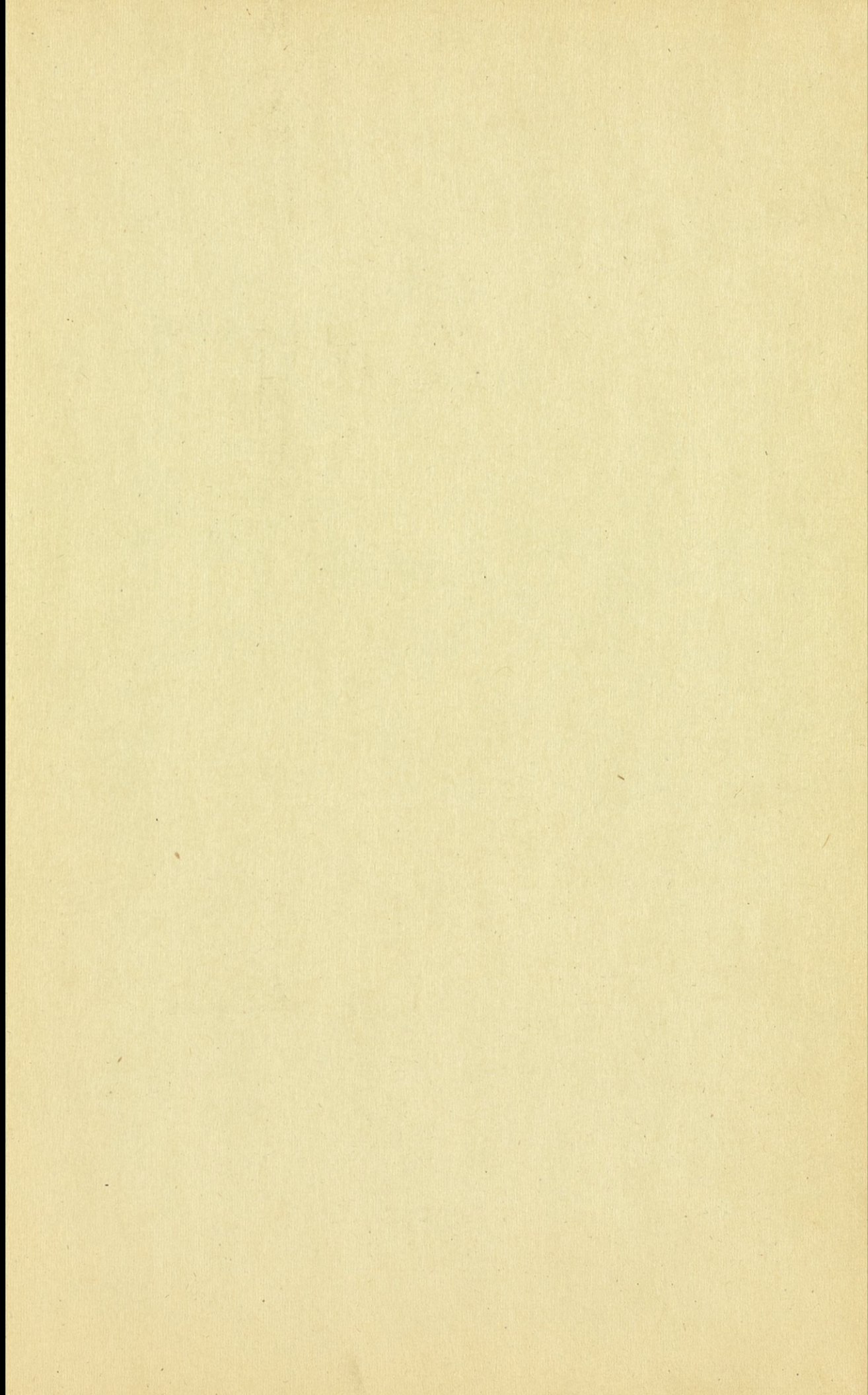
١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







AT 18

©

إعانة لـ سائر الجامعات 3/6

الأمريكية نيو تيربيس

1844

1845

ابن خلدون
حياته وراثته الفكرية

ALAMUJID
YTIQIVINU
YXABLI

893.7 I656

Enll

39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

ابن خلدون

حياته و تراثه الفكرى

تأليف

محمد عبد الله عنيان

المحامى

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

الحقوق كلها محفوظة

وممنوع أى نقل أو ترجمة أو اقتباس إلا باذن خاص

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما زال تراث ابن خلدون فريدا بين آثار التفكير الإسلامي ، وما زال يحتفظ رغم كثر العصور بكل قيمته وروعته وجدته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمي . ولكن ابن خلدون الذي اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يُغمط في الشرق حقه ، ويغمر ذكوه ، وينسى تراثه . وبينما ظهرت في الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، اذا به لا يكاد يظفر بشيء من ذلك في الشرق موطنه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو الى الغبطة أن ذكر ابن خلدون أخيرا ، وترددت الدعوة لإحياء ذكره لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده ، فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكوره وخالد آثاره ، ولا سيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده ، وفي مصر مقام

شيخوخته ومثوى رفاته ، وحفلات المجلات والصحف العربية حينما يختلف البحوث عنه ، وبذلك مثلت ذكراه قوية بيننا مدى حين ، والتفتت الأنظار نوعا الى قراءته ودرسه .

ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرفتهم وقرأتهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ، وكان فى مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمه ، فإن هذه الدراسة التى أقدمها اليوم للتعريف بابن خلدون وتراثه ، إنما هى وفاء التلميذ لأستاذه ، التمس لكاتبها هذه الذكرى الستائة لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم ، وكنت أعترم أولا أن أقدمها باسم "ذكرى ابن خلدون" ولكنى خشيت ألا يدل اسم الكتاب على حقيقة محتوياته فأثرت أن أقدمه باسمه الحالى .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل الحوادث السياسية التى اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية فى أواسط القرن الثامن ، فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها فى هذه الحقبة وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصة ففصلتها تفصيلا وافيا ، وشرحت علائق المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من صنوف الخصومة والجلد ، شرحا ضافيا .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتأوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن اجتنب الجدل والمقارنات المعقدة ، مع حرصى فى الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد . وقصدى بما كتبت فى ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى اذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه ويدرسه بإمعان وافاضة . أما دراسة البحث الغربى لابن خلدون ، وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد افردت له فصلا خاصا يضم خلاصة وافية لكل ما كتب فى ذلك الشأن .

كذلك رأيت أن أضع بيانا فهرسيا عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التى مرّ بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التى رُجع إليها فى نشره ، وما تُرجم منه الى مختلف اللغات الأوربية ، وما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكاتب . وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التى رجعت إليها ، والتى يُدرس فيها ابن خلدون وأثره ، لكى يرجع إليها من شاء التوسع والمزيد .

ان ابن خلدون على قَدَمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذنا لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ

الشباب مقدّمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مرارا وتكرارا ،
لا ليعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث ، ولكن أيضا
ليستقي منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر
الإجتماعية التي تجول بذهنه وكثيرا ما يتعثّر في التعبير عنها ؛ ذلك
أن مقدمة ابن خلدون اذا كانت ثروة لا تقدر في تراث التفكير
العربي ، فهي أيضا ثروة لا تقدر في تراث البيان العربي .

فإلى الشباب المثقف في مصر ، وفي جميع البلاد العربية ،
أقدم هذه الدراسة لشخصية ممتازة في التفكير الاسلامي ، وذهن
عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله الى وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال
موضع إعجاب التفكير الغربي وتقديره ، راجيا أن يجد الشباب
في هذه الدراسة ما يحفزه الى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع
بنفيس تراثه .

محمد عبد الله عثمان

المحامى

القاهرة في أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٣

الكتاب الاول

حياة ابن خلدون

١

في المغرب والأندلس

٧٣٢ - ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ - ١٣٨٢ م

الفصل الاول

نشأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم في ميدان الرياسة . نزوحهم الى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة في بلاط تونس .

كان العام الماضي مبعث ذكرى خالدة في التفكير الإسلامي : تلك هي انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسي والفيلسوف الاجتماعي . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم ثقبوا بين تراث العربية أسمى مكانة ، بخدير أن تكون هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه^(١) ، ودون لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيرا من خلاله وخواصه ونواحي نفسه ؛ وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التي تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمت ترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ؛ وفي هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو أخصب

(١) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

مصادرنا وأهمها في كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛
ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث
المادية ؛ فإذا لم تكن ثمة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث ، فهناك
دائماً وجهة التقدير واستخلاص النواحي المعنوية ؛ وهناك اختلاف
الفهم والعرض . وإذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته
وحوادث عصره التي ارتبطت بهذه السيرة ، فإنه يعرضها طبقاً لفهمه
ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه في كثير من الأحيان بالعاطفة
والهوى . وتحري الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فإذا
كنا نعتبط بهذا التراث الذي تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه
ما يسهل مهمة ترجمته ، فإننا قد نشعر من جهة أخرى بالخرج
في كثير من المواطن التي نلمح فيها أثر العاطفة والهوى .
وإذاً فسيكون تراث المؤرخ عمدة الأولى في ترجمته ؛ ولكنه
لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهناك مصادر وتراجم عديدة أخرى
جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته في مصر . وسوف
نستشيرها جميعاً . وسنتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله .
ولكننا سنحاول ان نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة ، وأن نستخلصها
من مختلف المؤثرات والأهواء .

ولد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو
سنة ١٣٣٢ م) في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس
في أواسط القرن السابع الهجري . وهو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد
ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن

ابن خلدون . ويرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية
في حضرموت ، ونسبه الى وائل بن حجر ، ويعتمد في ذلك على رواية
النسابة الأندلسي ابن حزم^(١) ، غير أنه يشك في صحة هذه السلسلة ،
ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت ، لأنه اذا كان خلدون هو جده
الداخل الى الأندلس عند الفتح ، فان عشرة أجداد لا تكفى لقطع
سته قرون ونصف ، التي انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفي رأيه
أنه يجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . وأما نسب
جده خلدون الداخل إلى الأندلس ، فهو كما روى ابن حزم أيضا ،
خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هاني بن الخطاب بن كريب بن
معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر . فابن خلدون طبقا لهذه
النسبة سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمانية ، ولكن هنالك
ما يحمل على الشك في صحة هذا النسب البعيد الذي يدونه ابن حزم
لأول مرة في القرن الخامس الهجري ، ويقوى هذا الشك لدينا
ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر
في الأندلس ، فقد اشترك البربر في فتح الأندلس ، وقاموا بمعظم
أعبائه ، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم ، واستمرت
الخصومة بينهما أحقابا طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ،
وبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة
في الأندلس شرفا يرغب في الانتساب إليه ، لما كان لها من
السيادة والنفوذ ، ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل
العصبية والرياسة ، بل لقد تطرق هذا الشك الى أنساب زعماء

(١) توفي ابن حزم سنة ٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م .

الفاحين أنفسهم ، فقل عن طارق بن زياد، إنه من البربر وقيل إنه فارسي من موالي العرب . وهناك أيضا ما يبعث على التأمل في تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية ، وهو أنه في مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الحصومة والتحامل ، بينما نراه في مكان آخر من تاريخه يمدح البربر ويشيد بخلاصهم وصفاتهم^(١) .

وعلى أي حال فإن ابن خلدون ينتمي الى بيت من بيوت الرياسة في الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الأندلس في جند اليمانية ونزل أولا في مدينة قرمونة ، ونشأ بها بئته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية . ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا في أواخر القرن الثالث في عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموي (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) ، ففي عهده اضطربت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحي ، وكانت إشبيلية في مقدمة المدن الثائرة ، ثار بها أمية بن عبد الغافر ، وعبد الله بن الحجاج ، وكريب^(٢) ، وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد بها ، وقتل ابن الحجاج ، فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج ، واشتدوا في مناوئته ، وقتلوه حتى قتل ، واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج ، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع ابن حفصون

(١) سنعرض الى ذلك في فصل قادم .

(٢) وردت في التعريف (كريت) — كتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٨٠ . ولكن

الأرجح انها كريب .

أعظم ثوار الأندلس يومئذ والمتغلب على جنوبها ما بين مالقة
ورندة، فخشي كريب أمره وأشرکه معه في حكم إشبيلية . وكان
كريب صارما شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا الى
ابراهيم لما رأوه من رفقه ولينه ، واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله
وحصل منه سرا على عهد بولاية إشبيلية ، ثم ثار في أهل المدينة
بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون
بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة
أورياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء ابن عباد على إشبيلية ،
فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ، وورقت الى مراتب الرياسة والوزارة
في دولة بني عباد ، وشهد زعمائها موقعة الزلاقة الشهيرة التي انتصر
فيها ابن عباد وحليفه يوسف بن تاشفين المرابطى على ألفونسو
السادس ملك قشتاله (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) واستشهد جماعة منهم
في الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعا ، واستولى المرابطون
على الأندلس مدى حين ، ثم قام الموحدون بالمغرب واتزعوا
الأندلس من المرابطين ، واقطعوا زعماءهم الولايات والمدن ، فولى
على إشبيلية وغرب الأندلس أبو حفص زعيم هتاتة ، وتوارث
بنوه الولاية . واتصل بنو خلدون بالولاية الجدد ، واستعادوا
قسطا من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ،
وتضعفت قواعدها وثغورها وأخذت تسقط تباعا في يد ملك
قشتالة ، نزح الأمير أبو زكريا الحفصى حفيد أبي حفص الى
إفريقية سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى

عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا
إشبيلية قبل أن تقع في يد النصاري ، ونزلوا حيناً بسبته ، فأكرمهم
حاكمها الحفصي ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن
محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ بالأمير أبي زكريا في مدينة بونه ،
فأغدق عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفي الأمير زكريا وخلفه ابنه
المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسحاق ؛ وبنو خلدون خلال ذلك
ينعمون بالجاه والسعة . وفي عهد أبي إسحاق ، ولي أبو بكر محمد
ابن خلدون جد المؤرخ الثاني شؤون الدولة ، وولى ولده محمد جد
المؤرخ شؤون الحجابة حيناً لأبي فارس ولد أبي إسحاق وولى عهده ،
وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب ملك بني حفص ، وثار
بهم زعيم يدعى ابن أبي عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبا بكر
ابن خلدون وقتله وصادر أمواله ؛ وبقي ولده محمد في بلاط بجاية ،
وخاض غمار المعارك التي نشبت يومئذ بين بني حفص والخوارج
عليهم ؛ ولبت يتقلب في ظل بني حفص في مراتب الدولة . ثم
غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى الليثاني سنة ٧١١ هـ
فقربه وتولى حجابته حيناً . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقي مع ذلك
على مكانته ونفوذه في الدولة حتى توفي سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) .
أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد في الحياة السياسية ، وآثر
حياة الدرس والعلم ، وبرز في الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر . وتوفي
إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م)
وله من الولد عدة : أبو زيد ولي الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ
فتى يافعا في الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم ،

ولم يظهر منهم الى جانب المؤرخ سوى يحيى الذى تولى الوزارة فيما بعد^(١).

كان ابن خلدون اذا سليل أسرة عريقة ناهية ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ فى مهاد هذا التراث الذى تلقاه عن أسرته ، تهديه جدودها وتقاليدها ، ودرج فى حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ؛ وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقه فى القراءات السبع ، ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه ، ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب فى بلاد المغرب ؛ وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته فى كل علم وفن ، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ؛ ويذكر لنا أيضاً أسماء بعض الكتب التى درس فيها . ويبدو مما كتبه فى ذلك أنه تخصص نوعاً فى درس الحديث والفقه المالكي ، وعلوم اللغة والشعر^(٢) . ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية ؛ وينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما^(٣) ، وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه^(٤) .

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت

(١) ذكر ابن خلدون اخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من « التعريف »

(٢) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥

(٣) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١ .

(٤) من الإجازة وهى شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح .

العالم الاسلامي كله من سمرقند إلى المغرب ، ونعني بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ، وهو نفس الوباء الفاتك الذي عصف يومئذ بإيطاليا ومعظم الأمم الأوربية ، والذي ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور (١) .

وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب معا سنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) ، وهلك فيها والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة في لهجة مؤثرة فيقول إنها : « طوت البساط بما فيه » ، وفيها : « ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار في الدرس ، فعول على النزوح إلى المغرب الأقصى حيث نزع بعض شيوخه وأصحابه ، فردّه عن ذلك أخوه الأكبر محمد . ولم يمض طویل على ذلك حتى سنحت له فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن مجوره وأسيره السلطان الفتى أبي اسحاق ، وكتابة العلامة هي التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ، وكان المؤرخ يومئذ حدثا في دون العشرين .

(١) تناولنا تاريخ هذا الوباء ووصف مناظره في الشرق والغرب في فصل خاص

في كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

الفصل الثاني

آبن خلدون فى بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية فى القرن الثامن . بنو حفص وبنو عبد الواد وبنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلائه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية فى هذا العصر . تأثر الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون فى النزوح إلى المغرب . فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبي عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطاعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالآمر . سجنه ومحبته . إفراج الوزير حسن بن عمر عنه وردّه الى وظائفه . انتهازه للفرص وانقلابه على الوزير عمر . دعوته للسلطان أبي سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبي سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره فى هذا العهد . ولايته لخطّة المظالم . سقوط أبي سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر ابن عبد الله على الدولة . انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النفرة بينه وبين الوزير . اعتزاه الرحلة الى الأندلس .

— ١ —

ويمجدربنا قبل أن نتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحا للثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة . فقامت فى تونس

(إفريقية) دولة بني حفص ، وقامت دولة بني عبد الواد في تلمسان
والمغرب الأوسط ، وقامت دولة بني مرين في فاس والمغرب
الأقصى . وقامت في ظل هذه الدول وخارجها إمارات صغيرة
في بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء .
وكان أكبر غم في تراث الموحدين لبني مرين ؛ وكانت دولتهم
أعظم الدول الجديدة وأقواها ، تشمل المغرب الأقصى وسبته وجزءا
من المغرب الأوسط وأحيانا جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس
دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي غزا
الأندلس أكثر من مرة ، وتوفي سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . وتعاقب
من بعده على العرش عدة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش
فاس في العصر الذي نتحدث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى
الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبي سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) .
وكان يحيش بأطماع ومشاريع كبيرة . ففي سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل
طارق وافتتحها من يد النصاري . ثم زحف على المغرب الأوسط ،
وما زال يفتتح ثغوره تباعا من يد بني عبد الواد حتى استولى على
تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدت دولة بني مرين
شرقا حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن
بعد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بني حفص أصهاره
وأصدقائه ؛ فسار إليها في أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنه
السلطان أبي عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من
يد سلطانها عمر بن أبي يحيى ؛ ولبت نحو عامين في تونس يوطد
شؤونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه إلى المغرب الأقصى

ونخرج كثير من الثغور عن طاعته ، وبلغه تحفز ولده السلطان
أبي عنان لانزاع العرش ، فاختر ولده الفضل لولاية تونس ،
وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى . وفي ذلك الحين كان
بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم
الثغور وبايعتهم ، فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى
الفضل بن السلطان أبي يحيى ، واستولى عليها ، واستعاد ملك
أسرته . ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد
عبد الله بن تافراكين ، وانزع منه العرش وأقام فيه أخاه الطفل
أبا اسحق بن أبي يحيى في كفالته وتحت استبداده ، وذلك في أوائل
سنة ٧٥١ هـ .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن
الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لاتقطع ،
والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم
إمارات صغيرة متعاقبة ، في القواعد والثغور الوسطى مثل بجاية
وقسنطينة ، وبونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك
لأنها لها ، فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها في يد القدر ،
وكانت قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ويمكن الدسائس
والمكائد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين في طلب الرياسة
والملك ، وكانت العروش والإمارات دائمة القلب والتداول ،
والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع
الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة
تسطع في فترات السلم القليلة ، وتتنافس في البهاء والبذخ ، وتجذب

اليها رجال التفكير الأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين
بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم
ويتقبلون في نعمهم ، ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة .
ونلاحظ في تاريخ المغرب في هذه الحقبة أن الحركة الفكرية
تردهر وتستقر وتتقل طبعا لأحوال الدول وتقلباتها ، وانها كانت
كالدول دائمة الاضطراب والتنقل ، وانها لا تكاد تحتشد حول
قصر معين ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال .
وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ في المغرب دائمة الاحتشاد
والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائمة التردد بين المغرب
والأندلس . وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ،
ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصا بعد
أن قصت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على معظم
ثغورها وقواعدها ، ولذا نرى كثيرا من علماء الأندلس وأدبائها
يتزحون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقا وأوفى طمأنينة وأيسر رزقا
في معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته
العامة . وكان بنو خلدون مذ نزحوا إلى إفريقية في أواسط القرن
السابع يستظلون برعاية بني حفص وينعمون في ظل دولتهم
بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ في دور
انحلالها ، وفقدت أسرة المؤرخ كثيرا مما كانت تتمتع به من الجاه
والرزق ، وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب إلى اجتناء تراث أسرته ،
وإحياء نفوذها الزاهب ، وكان رأسه الفتى يضطرم بلا ريب
بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة للتزول

إلى ميدان الحياة العامة ، حينما استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا
للكتاب العلامة عن محجوره السلطان أبي اسحاق ، وذلك في أواخر
سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) . ولكن ابن خلدون كان ينظر إلى ضعف
حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والخزع . وكان
بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا ، وشهد ابن
خلدون قوتهم وضخامة ساطانهم ؛ ولما غادر السلطان أبو الحسن
تونس إلى المغرب الأقصى ، غادرها في ركبه معظم المفكرين والأدباء
من شيوخ ابن خلدون وأقرانه ، إيثارا للعيش في ظل الدولة
القوية الظافرة ، وطموحا إلى اجتناء الجاه والرزق بعد أن نفقت
سوقهما في تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ ،
ولكن أخاه الأكبر صده حينما عن تحقيقها ؛ فلما استدعى لكتابة
العلامة أخذ يترقب الفرص للتروح إلى المغرب الأقصى لبحث
وراء طالعه وليعالج تحقيق أطباعه حيثما يلوح أفق المغامرة أوسع
وأجدى .

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ؛ ففي أوائل
سنة ٧٥٣ هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى
في قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث
أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين . فسار ابن
تافراكين في جنده إلى لقائه وصحبه ابن خلدون في ركبه . ووقعت
بين الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس ؛
وانسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، وأقام

حينما في أبة عند بعض شيوخ المرابطين ، ثم قصد سبتة ، ثم ارتد
الى قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ
أمير قسنطينة ، ومن هنالك سار معهم الى بسكرة وقضى بها الشتاء .
وفي ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى
قد توفي (في ربيع الثاني سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان
أبي عنان عليه واستيلائه على فاس . وكان أبو عنان أميرا وافر
البأس والعزم فما كاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ يهيء
العدة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التي افتتحها أبوه
من يد بني عبد الواد ثم استعادوها لأعوام قلائل . فزحف عليها
في أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد ، ثم
استولى على بجاية بدخول صاحبها في طاعته . وكان ابن خلدون
يومئذ في بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان أبي عنان أثناء
مقامه بتلمسان ، ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن
يحتسب ، وردّه مع حاجبه ابن أبي عمرو الى بجاية حيث شهد
مراسيم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت
معه الوفود الى ركابه سار ابن خلدون معهم وحظي بلقاء السلطان
وكرم وفادته مرة أخرى . ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه ،
وارتد ابن خلدون مع ابن أبي عمرو الى بجاية ، وأقام هنالك عنده
حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) .

ولبت ابن خلدون يسعى في الالتحاق ببطانة السلطان أبي
عنان حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون ان السلطان هو
الذي استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه في مجلس عقد لاختيار

طلبة العلم ، فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضوا في مجلسه العلمي وكلفه بشهود الصلوات معه . وما زال يدينه ويقربه حتى عينه في العام التالي ضمن كتابه وموقعيه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التي شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاما وخطورة . وفي ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حدائته من الأطماع الكبيرة . على أنه استطاع أثناء مقامه بفاس ، أن يستأنف الدرس والقراءة ، على جماعة من أكابر العلماء الوافدين اليها من الأندلس وباقي أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيرا في تلك الحقبة ، ونمت معارفه نموا كبيرا .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة في تاريخ الدول المغربية في هذا العصر ، تأخذ بقسط بارز في تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحيانا في تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحيانا تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان ابن خلدون لا يزال عندئذ في نحو الثانية والعشرين من عمره ، ولكن ذكاه وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطماعه ، واعترازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما إلى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرزق . وكانت أحوال الدول والقصور المغربية في ذلك العصر ، كما بينا ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوي الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبي عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه في سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتتح أفقه ، وبدأ ذلك النشاط السياسي الزاخر

الذى لبث مدى ثلاث قرن يحمله بين دولة ودولة، وبين قصر وقصر، وبين الرفعة والسقوط، والنعم والمحن، مرارا .

لم يمتص على انتظام ابن خلدون في بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة إلى خوض غمار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبي عنان لم يدخر باعترافه وسعا في اكرامه والعطف عليه، ومع أنه ولاه رغم حداثة منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبي عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ أسيرا في فاس . ويروى لنا ابن خلدون قصة هذه المؤامرة في عبارة غامضة^(١)، ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم، وأنه خرج في ذلك التفاهم عن حدود التحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بني حفص الذين ينتمى إليهم الأمير المخلوع من الود القديم . وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضا فنمى إليه خبر المؤامرة ، وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر^(٢) . فأمر بالقبض عليه وألقاه في غيابة السجن ، ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد ، فإنه أبقى المؤرخ يرسف في أغلاله . ونزلت بابن خلدون تلك المحنة التي ينسبها إلى سعاية خصومة في أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون في ظلام السجن زهاء عامين طويلين ،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٠٣

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤١٧

وتضرع الى السلطان أبى عنان مرارا أن يطلقه، ولكن السلطان
أعرض عن كل تضرع وشفاعة؛ وأخيرا رفع اليه قصيدة طويلة
في نحو مائتي بيت يلتمس عطفه وصفحه؛ وقد ذكر لنا منها
الآيات الآتية :

على أى حال لليالى أعاتب	وأى صروف للزمان أغالب
كفى حزنا أنى على القرب نازح	وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل	تسألنى طورا وطورا تحارب

* * *

سلوتهم الا اذكار معاهد لها فى الليالى الغابات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يسوقنى اليهم وتصبىنى البروق اللواعب
ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان
أحسن موقع . وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه .
ولكن المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق الوعد فى ذى الحجة
سنة ٧٥٩ (أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر
القائم بأمر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين، وردده
الى سابق وظائفه، وأغدق عليه عطفه، وأحسن رعايته ومثواه .

— ٣ —

ولما توفى السلطان أبو عنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر
ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على
العرش ، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين .
وكان أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه
المولى أبى سالم ونفاه الى الأندلس مع باقى اخوته ؛ فلما توفى أبو عنان

بادر أبو سالم بالسعى الى استرداد العرش وعبر الى المغرب بعد
صعاب جمة ، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت
اليه قبائل غمارة وظاهرتة على أمره ، وحدث في الوقت نفسه
انقلاب جديد بفاس . ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب
يعقوب بن عبد الحق بالوزير الحسن فانزع السلطة من يده ،
وتوارى الوزير وسلطانه السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألقى ابن
خلدون في تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ، وقام خلالها بدور
لا يحمد . وقد كان تصرفه في حق السلطان أبي عنان بادرة سيئة
تم عن عواطف وأهواء ذميمة ، بيد أنه لم يكن وليد خطأ مؤقت ،
بل كان بالعكس عنوان نزعة متأثلة في النفس ، وثمره مبدأ راسخ .
كان ابن خلدون رجل الفرص ، ينتهزها بأى الوسائل والصور ،
وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة ، ولا يضيره في ذلك أن يجزى
الخير بالشر والإحسان بالإساءة ، وهو صريح في تصوير هذه النزعة
لا يحاول اخفائها . فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر ، وأحسن
اليه وأثابه ، ولكنه ما كاد يرى وثوب المتغلب منصور بن سليمان
حتى ترك جانب الوزير الى جانب خصمه ، وتولى الكتابة للملك
الجديد ، بيد أن ولاءه لم يطل ، فإن السلطان أبي سالم نزل في غمارة
وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق بابن خلدون
سرا ، وسلمه من أبي سالم كتابا يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده
ويعده بأجمل خير وحظوة ، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى
في تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبي سالم ، وأجمعوا
أمرهم على تأييده ، وكذا وافق الوزير ابن عمر على طاعته بعد أن

أجهدده الحصار . ثم غادر ابن خلدون سيده بجأة مع نفر من الزعماء الى معسكر السلطان أبي سالم ، وعرض عليه خطته لخالع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور "لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر الى السلطان" (١) . وسار أبو سالم في جموعه ، وابن خلدون في ركابه ، الى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ، وجلس أبو سالم على عرش أبيه (في شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وبنوه ابن خلدون بأنه نهج يومئذ في كتابة الرسائل نهجا جديدا ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل ، ويقول لنا أيضا إن شاعريته تفتحت في هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر الذي "يتوسط بين الإجادة والقصور" وأنشد السلطان كثيرا من القصائد في مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمه في ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها الى السلطان ليلة المولد النبوي (سنة ثلاث وستين) يعدد فيها مناقب النبي الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن في هجرى وفي تعذبي	وأطان موقف غربتي ونحبي
وأبين يوم البين موقف ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا	قلبي رهين صباية ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح	فشرقت بعدهم بماء غروبى
ومنها :	

سائل به طامى العباب وقد سرى
تهديه شهب أسنة وعزائم
تزجى بريح العزم ذات هبوب
يصد عن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه
وسط الهدى بفريقها المغلوب
ورفع الى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان
(سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره،
ويصف الزرافة بما يأتى :

ورقيمة الأعطاف حالية
وحشية الأنساب ما أنست
موشية بوشائح البرد
فى موحش البيداء بالغرد
تسمو بجيد بالغ صعدا
شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامحات به
ولربما قصرت عن الوهد
وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون، فيما يظهر، عهد
البيان والشاعرية، فاشتهر أمر نثره ونظمه فى دوائر الأدب والشعر
بالمغرب والأندلس يومئذ. ويصف لنا ابن الخطيب نثره ورسائله
السلطانية بأنها "خلج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع يفرغ
عنه يراعه الجريء، شبيهة البداءات بالحواتم فى نداوة الحروف
وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع"
ويقول عن نظمها إنه "نهض لهذا العهد ودما فى ميدان الشعر
ونقده باعتبار أساليبه، فانتال عليه جوه، وهان عليه صعبه، فأتى
منه بكل غريبة" (١).

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

(١) ابن الخطيب، فى ترجمته لابن خلدون فى "الإحاطة فى أخبار غرناطة"
ونقلها المقرئ فى نقح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ١٤ وما بعدها.

وأنه ينحو في كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين في صوغ الغزل الروحي . وقد كان ابن خلدون على ما يظهر يحيش بنزعة صوفية ، ويبدو مما كتبه في المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبار الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى ^(١) انه قد درس التصوف وخواصه دراسة لا بأس بها . ونحن نورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه في "التعريف" أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئا منها ، غير أنه دون بعض رسائله الخاصة التي تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته في معالجة النثر المرسل ^(٢) . على أنه يبدو مثل هذه المقدرة في البيان والتعبير بالأخص في مقدمته ، وجميع تاريخه حسبما نبين بعد .

ولبت ابن خلدون في كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبي سالم زهاء عامين ، ثم ولاه "خطة المظالم" (القضاء) فأداها بقوة وكفاية . بيد أن حظوته لدى السلطان ضعفت واضمحل نفوذه ، وكانت المنافسات دائمة الاضطرام بينه وبين رجال الدولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان وزميله في المنفى متمكنا من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقباض على كل سلطة ، يتصرف بالأمر والنهي طبق هواه ، فكان هذا الطغيان يسيط رجال الدولة وأولى الرأي ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) تراجع هذه الرسائل في كتاب العبر ، ج ٧ ص ٤٢٧ و ٤٣٤

ابن خلدون ممن عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم ،
وكثر منه الوقعة والسعاية في حقه غيرة منه ، وخشية من نفوذه ؛
وتمادى ابن مرزوق في طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه
وعلى السلطان من كل ناحية ، وأجمع الزعماء والكبراء رأيهم على الخروج
والثورة . وكان زعيمهم في ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر
السلطان . وكان أبوه الوزير عبد الله بن علي من قبله متمكنا في دولة
بني مرين بجاهه وواسع ثروته . فلما توفي سنة ستين عند ولاية
السلطان أبي سالم تطلع الولد إلى تراث أبيه ، واستعان بابن مرزوق
على تحقيق بغيته ، وزوجه السلطان بأخته ، وعينه كبير أمناؤه وجعله
موضع ثقته حيناً . ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة
كان يحفظه ويذكره سخطه ؛ وكان السلطان من جهة أخرى يشك
في صلته بأمير تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة ؛
فلما تجاوز ابن مرزوق في طغيانه كل حد ، واختمرت فكرة الثورة ،
تفاهم عمر بن عبد الله مع قائد الجند ، ووثب بالقصر الملكي في غيبة
السلطان واستولى على البلد الجديد (العاصمة الجديدة) ونادى بخلع
أبي سالم وتولية أخيه تاشفين سلطانا مكانه ؛ واضطربت عندئذ
نار الثورة في كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية ؛ وحاول أبو سالم
أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه ، ولكنه لما رأى تسرب
أصدقائه من حوله إلى الظافر ، فر في جماعة من صحبه ، فطارده
الوزير عمر وقبض عليه وأمر بقتله ؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل
سلطة ؛ وكان ذلك الانقلاب في أواخر سنة ٥٧٦٢ هـ (١٣٦١ م)^(١) .

ماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الانقلاب الجديد ؟
كان كما عهدناه دائماً إلى جانب الظافر ينضوى تحت لوائه دون
إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره في وظائفه
وزاد في إقطاعه ورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة .
فقد كان على قوله « يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه » .
وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبي عنان صداقة قديمة ،
وكان يعتمد على هذه الصداقة في التمكن لدى الوزير ويرى لها
حقها عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه
في الظفر بمناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن
الوزير عمر لم يحقق له أملاً في ذلك . ولعله كان يخشى بحق مما
تجيش به نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون
واستقال من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتنكر له ،
فتوجس ابن خلدون شراً ، واستأذن في السفر إلى بلده تونس فمنعه
الوزير من ذلك خشية أن يمر في طريقه بعدوه أبي حمو أمير
تلمسان التي استرجعها بنو عبد الواد يومئذ ، فاستغاث ابن خلدون
بمسعود بن ماسي زميل الوزير عمر وصهره فأغاثة وما زال بعمر ،
حتى أذن له في السفر بشرط أن يجانب تلمسان وألا يذهب إليها
بأى حال ومن أى طريق . فاختر ابن خلدون الرحلة إلى
الأندلس . وهنا يحدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ،
يقول لنا إنه صرفهم إلى أخوالهم في قسنطينة . وإذا فقد كان
ابن خلدون يومئذ متزوجاً وكان له أولاد . ولم يقل لنا من قبل
إنه تزوج ، ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أننا نعتقد أن

هذا الزواج كان في سنة ٧٥٤ هـ ، أعني قبل ذلك بعشرة أعوام ،
في الوقت الذي كان يتجول فيه في المغرب الأوسط على أثر مغادرته
لتونس سنة ٧٥٣ هـ ، وكان عندئذ يقيم ببجاية على مقربة من قسنطينة ،
وفق ما أسلفنا . وسرى أن ابن خلدون يتبع منذ الآن أسرته بالذكر ،
فيشير إلى تنقلاتها معه في مختلف المواطن ؛ بيد أنه لا يقدم إلينا
عنها أو عن ولده أو حياته المنزلية أي تفصيل آخر .

الفصل الثالث

رحلة الأندلس

محمد بن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمر ووفوده
مع وزيره الى بلاط فاس . قصيدة ابن الخطيب في استنهاض ملك المغرب لنصرة ملكه .
ابن الخطيب وابن خلدون . استرداد محمد ابن الأحمر لعرشه ورده ابن الخطيب
الى وظائفه . سفر ابن خلدون الى غرناطة . توثق الصلة بينه وبين ابن الأحمر .
إرساله سفيراً لملك قشتالة . رواية ابن خلدون عن زيارته لإشبيلية موطن أجداده .
فتور العلائق بينه وبين ابن الخطيب . مغادرته للأندلس .

وكان ملك غرناطة (الأندلس) في ذلك الحين محمد بن يوسف
ابن اسماعيل بن الأحمر النصرى . ولى الملك عقب مقتل أبيه
السلطان يوسف أبى الحجاج سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) . وكان حدثاً
ضعيفاً فاستبد حاجبه أبو النعيم رضوان بشئون الدولة ، وكان
من وزرائه لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس
وشعراً يومئذ ، وكان وزيراً لأبيه من قبل . وكان السلطان
أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبى سالم وباقي أخوته ونفاهم
إلى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان محمد مثواهم ، وأحكمت
بينه وبين السلطان أبى سالم صداقة متينة . فلما توفى السلطان
أبو عنان ، واسترد أبو سالم عرشه في شعبان سنة ستين ، كانت
الصلة بين الأميرين أوثق ما يكون . بيد أنه لم تمض أسابيع
قليل على جلوس أبى سالم ، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد

عرشه في أواخر رمضان سنة ستين . وكان أخوه اسماعيل يؤازره جماعة من الزعماء في مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لإسماعيل سرا ، ويتربقب الفرص للوثوب بمحمد . فانتهاز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة ، واستولى على حصن الحمراء في جمع من أتباعه ، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى بإسماعيل أخى السلطان ملكا مكانه . ففر محمد إلى وادى آش ، واعتقل وزيره ابن الخطيب^(١) ، وعلم أبو سالم بمحنة صديقه ، ورعى له عهد الصداقة والوفاء فأرسل إلى الأندلس سفيرا يسعى لدى حكومة غرناطة في إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب . فنجح السفير في مهمته ، وعاد إلى المغرب صحبة السلطان محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة

(١) لسان الدين بن الخطيب ، هو محمد بن عبد الله بن سعيد من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها في القرن الثامن الهجرى . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٥٧١٣ م (١٣١٣ م) ودرس دراسة حسنة ، وبرز في النظم والإنشاء . ودرس الطب والفلسفة ، وخدم سلاطين غرناطة منذ حدثته فتوى ديوان الكتابة ثم الوزارة للسلطان أبي الحجاج ثم تولى الوزارة لولده محمد ، وشاطره محنته ونفيه ، فلما استرد عرشه عاد إلى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حينئذ ، فلما أخذ نجمه في الأفول ، ونفوذ في الضعف ، نزح إلى المغرب الأقصى واستظل بلواء سلطانها ، ولكن خصومه سعوا إلى هلاكه ، وما زالوا به حتى اتهم بالزندقة والكفر فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته سنة ٥٧٧٦ م (١٣٧٤ م) وله ثبت حافل من الآثار أشهرها : الإحاطة في أخبار غرناطة . تاريخ الدولة النصرانية . ريجانة الكتاب . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرئ صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

(١) إحدى وستين) واستقبلهما أبو سالم في فاس أجمل استقبال ،
 واحتفل بقدميهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ
 قصيدة رائعة ، يدعو فيها لنصرة سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :
 سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
 وهل باكر الوسمى دارا على اللوى عفت آيها إلا التوهم والذكر
 بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى بأ كفها والعيش فينان مخضر
 وجوى الذى ربي جناحى وكره فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

* * *

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
 كففتنا بك الأيام عن غلوائها وقد رأينا منها التعسف والكبر
 وعدنا بذاك المجد فانصرم الردى ولذا بذاك العزم فانهزم الشر
 ولما أتينا البحر نهرب موجه ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر

* * *

ومنها :

وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى وأنت الذى ترجى اذا أخلف القطر
 ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيالميرين جاءه العز والنصر
 وخذ يا إمام الحق بالحق ثاره ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر^(٢)
 وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل . ويقول لنا إن ابن

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث — تاريخ الدولة النصرىة لابن الخطيب
 ص ١٠٨ وما بعدها ، وابن خلدون فى كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .
 (٢) والقصيدة طويلة فى نحو ثمانين بيتا وقد ورد نصها كاملا فى المكاتيب
 السالفين .

الخطيب أبكى سامعيه تأثرا وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهاة عديدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره في التفكير والكتابة ؛ وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلبا بين الظفر والحنّة ؛ وكان كلاهما وزير ومستبد ومستشار لأمرء عصره ، ومعرض لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل في دول المغرب نفس المركز الذي كان يشغله ابن الخطيب في الأندلس ؛ وقد استأثر في المغرب بزعامة التفكير والكتابة التي كان يستأثر بها ابن الخطيب في الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصدّاقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ؛ وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويحمله ، ويكبر مواهبه وخلاله . وقد ترجم كل منهما الآخر ؛ وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ؛ فيقول لنا ابن خلدون في ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت في الآفاق قدماءه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبعدهمته في الإدارة والحكم ^(١) ، ويصف ابن الخطيب ، ابن خلدون في ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل

(١) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس والمغرب — في كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها — وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الخطيب ج ٧ ص ٣٤١ .

المجدد، وقور المجلس، على الهمة، عزوف عن الضيم، صعب
المقادة، قوى الجأش، طامح لقنن الرياسة، خاطب للحظ،
متقدم فى عدة فنون عقلية ونقلية، متعدّد المزايّا، سديد البحث
كثير الحفظ، صحيح التصور...» (١) ويبدى كلا الرجلين فيما
تبادلا من رسائل، لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال.

وأقام السلطان محمد فى بلاط فاس حيناً ولم يدخر أبو سالم
وسعا فى إكرامه. وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب، واستقر
بسلا. وتوثقت بين ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال
الدولة وبين الأمير المخلوع روابط المحبة والصدّاقة، وكان يقوم
بخدمته وقضاء مطالبه، فلما سافر الأمير إلى الأندلس ليحاول
استرجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته، ورعاية شؤونها
ومطالبها، وتوفير راحتها. وعقدت أيضا بينه وبين ابن الخطيب
أواصر صدّاقة نمت وتوثقت فيما بعد. وحاول السلطان محمد أن
يعمل لاسترداد ملكه بمعاونة بيدرو القاسى (بتره أو بطره) ملك
قشتالة، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما، ولكن ملك قشتالة حينما
سمع بمصرع السلطان أبى سالم، أبدى فتورا فى التنفيذ، فاستغاث
محمد عندئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، ووسط
لديه ابن خلدون، وكانت له يومئذ لديه حظوة، فى أن يقطعه
إحدى مدن الأندلس المغربية، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب.
فأقطعه رندة وأعمالها. وما زال يدبر أمره، حتى استعاد ملكه

(١) وردت هذه الترجمة فى كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة». ونقلها

المقرئ فى نفح الطيب (بولاقي) ج ٤ ص ١٤ وما بعدها.

من أيدي خصومه ، ودخل غرناطة ظافرا في جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ، واستقدم اليه أسرته من فاس واستدعى وزيره ابن الخطيب وردّه الى سابق مراتبه ونفوذه .

ثم وقع الحفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة إلى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أياد لا تنسى ، فإننا نستطيع أن نتصور العوامل التي دفعته إلى تلك الرحلة ، والآمال التي كان يعلقها عليها . فقصد إلى سبتة في أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم جاز منها إلى الأندلس ، وكتب إلى السلطان وابن الخطيب بمقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم . ووصل إلى غرناطة في الثامن من ربيع الأول ، فاهتم السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه في أهل مجلسه ، وقربه اليه ، وآثره بصحبته وأسماؤه . وعامله ابن الخطيب بمنتهى الإكرام والرعاية . وفي العام التالي ، أعنى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان سفيرا عنه الى بيدرو القاسى (بترة أو بطرة) ملك قشتالة^(١) ، ومعه هدية نفحة ، لإتمام عقد الصلح وتنظيم العلائق بينهما . فقصد ابن خلدون اليه في إشبيلية حيث كان يقيم يومئذ ، وتلقاه ملك قشتالة بالترحيب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه

(١) هو بيدرو أو بطرس القاسى ملك قشتالة ولد سنة ١٣٣٤ وتوفي سنة ١٣٦٩ ، وتولى العرش بعد وفاة أبيه الفونسو الحادى عشر سنة ١٣٥٠ ، وقد اشتهر بصرامته وطغيانه وبطشه .

عائنه آثار أسرتة باشبيلية وقد كانت كما رأينا منزل بني خلدون
وفيهما سطع نجمهم حيناً ، وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرتة ،
وعترف به وبمكانته طيب يهودى فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرور ،
وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل حين
استدعاه لمعالجته ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ
أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث
أسرتة بإشبيلية ولكنه أبى . ولا ريب أن ابن خلدون كان أذكى
من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جاداً فى عرضه . وأدى
ابن خلدون مهمته بنجاح ، ووهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة
بمركب ثقىل ولحام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان ، وأقطعه
السلطان عند عوده قرية البيرة بمرج غرناطة ، فزاد رزقه
واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان فى استقدام أسرتة من
قسطنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها . وعاش مدى أشهر آخر
مع أسرتة فى رغد وطمانينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض
السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته فى ذلك من فتوره
وإعراضه ، وكان الوزير يخشى بلا ريب منافسته ومشاريعه .
وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته فى الوقت
نفسه رسالة من صديقه الأمير أبى عبد الله محمد أمير بجاية بأنه استرد
ملكه ، وأنه يرغب فى قدومه ، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ
واستأذن السلطان فأذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعه معززا مكرما ،
فغادر الأندلس ، وركب البحر من ألمرية إلى بجاية فى منتصف

الفصل الرابع

ذروة المغامرة

أبو عبد الله محمد أمير بجاية . استعادته للملكة واستدعاؤه لابن خلدون . تولى ابن خلدون الحجابة المطلقة في بجاية . استيلاء أبو العباس أمير قسنطينة على بجاية ومصرع الأمير محمد . انضواء ابن خلدون تحت لواء الظافر . الوحشة بينه وبين أبي العباس وفراره الى بسكرة . المغزى الأخلاقي لهذه الحوادث . استدعاء أبو حمو سلطان تلمسان لابن خلدون . اعتذاره وقيامه بالدعوة له . السلطان عبد العزيز المريني يفتح تلمسان . اتصال ابن خلدون به وقيامه بدعوته . قدوم ابن الخطيب الى المغرب . سفر ابن خلدون الى فاس . تطوّر الحوادث في المغرب وقيام السلطان أبو العباس احمد . الدسائس حول ابن خلدون . سفره الى الأندلس . المطالبة بتسليمه . مصرع ابن الخطيب

لم ينس أمير بجاية إبان ظفوره صديقه أيام محنته ، ولم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن . فكتب اليه يستدعيه ليشاركه في أمره وليحقق له الوعد الذي قطع على نفسه . وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية (تونس) خاضعة للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمير أبو يحيى اللخمي سنة ٧١١ هـ كما قدمنا ، أقطع الثغور لأولاده فتولى بجاية ابنه الأمير أبو زكريا ولبث في حكمها حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ . وخلفه في حكمها ولده الأكبر الأمير أبو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن على إفريقية خلع الأمير محمدا فيمن خلع من أمراء الثغور ونفى إلى المغرب . ولما ثار السلطان أبي عنان على أبيه أثناء غيبته

في إفريقية ردّ الأمراء المخلوعين وفيهم الأمير محمد إلى ثغورهم لكي يعترضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حيناً آخر في حكم بجاية . ثم توفي السلطان أبو الحسن ، وتم الأمر لأبي عنان . فانتزع بجاية من صاحبها كزة أخرى وأرغمه على النزول عنها إليه ونفاه إلى المغرب ، فأقام هنالك حتى قدم ابن خلدون على السلطان أبي عنان ودخل في خدمته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لما كان بين أسرتيهما من سابق المودة ، واتهم ابن خلدون بالتآمر مع صديقه ، وبأنه يدبر له سبل الفرار لكي يسترد إمارته ثم يوليّه حجابته ، واعتقل مدى عامين حتى وفاة السلطان أبي عنان . فلما تولى السلطان أبو سالم سعى ابن خلدون لإطلاق الأمير محمد وباقي الأمراء المنفيين إلى ثغورهم ، وكتب له الأمير محمد بخطه عهداً بأن يوليّه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمير إلى بجاية وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه في سنة ٧٦٥ ، واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الأصغر ، وبعث إلى ابن خلدون وهو بالأندلس يستدعيه ليوليّه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب إليه وكان قد اعتزم الرحيل من الأندلس كما قدمنا . ووصل إلى بجاية في منتصف سنة ست وستين . فاستقبله أمير بجاية وأهلها أجمل استقبال . ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه في تلك العبارة الرنانة : « فاحتفل السلطان بقدمي ، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافي ، ويقبلون يدي وكان يوماً مشهوداً »

وتولى ابن خلدون في الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية ،

وقد كانت الحجابة يومئذ في الدول المغربية حسب تعريفه هي :
 « الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه
 في ذلك أحد » . واستبد بشئون الدولة ، ومضى يدبر الأمور بعزم
 ويعالج الفتن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الجبلية
 يستخلص منها الحباية قسرا بقوة دهائه ونفوذه . ولكن الخصومة
 ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية وبين ابن عمه السلطان أبي العباس
 صاحب قسنطينة . وكان أبو العباس يتطلع الى امتلاك بجاية
 ويشير على أميرها القبائل والبطون المجاورة . ويقول لنا ابن خلدون
 أيضا إن الأمير محمدا لم يحسن السيرة في أهل بجاية بل كان يرهقهم
 ويشدد الوطأة عليهم حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته
 إجابة لتحريض أبي العباس . وفي سنة سبع وستين قصد
 أبو العباس في جموعه الى بجاية ، وقاتل الأمير محمدا بظاھرها
 وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافرا . وكان ابن خلدون أثناء ذلك
 يلزم القصر في بجاية ، فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء
 في تولى الأمر والدعوة لأحد أبناء السلطان ، فأبى وخرج كعادته
 الى تحية الظافر والانضواء تحت لوائه ، وسلم ابن خلدون المدينة
 الى أبي العباس ، فأكرمه وأقره حيناً في وظيفته ، ولكن ابن خلدون
 شعر عما قليل بانحرافه فانصرف بإذنه الى أحد الأحياء القريبة .
 ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه ، ففتر ابن خلدون الى
 بسكرة فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى ، واعتقله ببونه ،
 وفتش بيوتهم وصادر أموالهم .

وهكذا اختتمت تلك المغامرة التي كان ابن خلدون مدبرها

منذ البداية ، وكانت من نفثات أطماعه ؛ وكانت كسابقاتها دليلاً على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران الصنعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافي الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية ؛ وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به ميكافيللى فيما بعد ، وتصوره فى أميره الأمثل ؛ ذلك الروح الجريء الثابت الذى يقتحم كل ضعف انسانى ، ويحمل تَوْأ إلى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعانى هذا الأمير أبو عبدالله بادرته إلى امثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير »^(١) . ولكن الذى لا ريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهياها منذ بعيد ؛ ولا ريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن خلدون عندئذ إلى سِكرة لصداقة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمو موسى ابن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً للأمير بجاية المقتول . وكان يطمح إلى فتح بجاية . فلما بلغت مقتل صهره بعث قواته إلى

(١) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٧٧ .

بجاية تحاول أخذها ، ولكنها هزمت هزيمة شنيعة ، وكتب أبو حمو على أثر ذلك الى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه في بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل اليه بالفعل مرسوم الحجابة ، وكتب اليه يرجوه في السعي لبث دعوته واستمالة القبائل اليه . فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أطلق سراحه الى سلطان تلمسان نائبا عنه ، ولكنه استجاب الى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبي العباس الى جانب خصمه أبي حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سمّت يومئذ مخاطر المغامرة وأهوال الوظيفة ، وزهدت في غواية الرتب ، واشتقت الى الدرس بعد أن هجرته طويلا ، فعول على استئناف الدرس والقراءة ، والإعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية . ولكن سنرى أنه يعود الى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مرارا أخرى .

وفي ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه ، ويحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه ، ويحدثه بأخباره ومحتته في بجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت اليه^(١) . ويبدو في هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والاحترام . ولبت ابن خلدون في بسكرة بيت الدعوة لأبي حمو ويحشد

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .

القبائل في جانبه ، ويؤلبها على أبي العباس ، ويعمل من جهة أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبي حمو وأبي إسحاق سلطان تونس . وكان بينه وبين أخيه أبي العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبي حمو بخروج ابن عمه أبي زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته في استمالة القبائل اليه ، ثم خرج مع صاحب بسكرة وباقي الزعماء الذين استماهم في قواتهم لنصرة أبي حمو ، وكان يتهاى لمحاربة خصومه (سنة ٧٧١ هـ) ولكن أبا حمو هزم امام خصومه مرة أخرى وارتد ابن خلدون الى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل الى جانب أبي حمو ، وأحكام الصلة بينه وبين سلطان تونس .

وفي العام التالي ، سار ابن خلدون في وفد من الرؤساء لزيارة أبي حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة . فلقيه بالجزائر ، وبقي لديه مدى حين ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فيها :

هذى الديار فحين صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال ان لم تروها	عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا	أن لا يرين مع البعاد شحاحا

ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحوّل عنه الى عدوّه ، يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج في جيوشه يومئذ يزعم غزو تلمسان وانتزاعها كركة أخرى من قبضة بني عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢ هـ .

كما قدمنا ، وأخذ يولى العرش ملوكا وأحداثا ضعافا من بنى مرين .
ففى سنة ٧٦٨ هـ ولى السلطان عبدالعزيز بن السلطان أبى الحسن ،
وكان أسيرا فى اعتقاله ، وشدد عليه الحجر والاستبداد كعادته ، فأنف
السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه ،
واسترد السلطة كاملة ، ثم خرج بجيوشه للغزو فى تخوم المغرب
الأوسط يقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بنى عبد الواد
فى المغرب الأوسط ، وكان ابن خلدون يقيم عندئذ فى ضيافة
أبى حمو . فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق الى
بسكرة قد سدت فى وجهه ، وسرت الفتنة الى كل ناحية ، خشى
العاقبة على نفسه ، واستأذن أبى حمو فى السفر الى الأندلس ، فأذن
له وبعث معه برسالة الى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون الى
مرسى هنين ليركب البحر منها ، ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ
بجيوشه على تلمسان فغادرها أبو حمو الى الصحراء ليحشد جموعه
وأنصاره . ونمى الى ملك المغرب أن ابن خلدون فى هنين وأنه
يحمل ودائع لأبى حمو ، فأرسل فى طلبه سرية من الجند ، فدهمته
فى المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئا ، وحملته الى السلطان فى ظاهر
تلمسان ، فحقق فى شأنه وعنفه على أنسلاخه عن بنى مرين وانضوائه
تحت لواء أعدائهم ، فاعتذر ابن خلدون بما كان بينه وبين الوزير
عمر ، وشفع له أكابر الدولة الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته
لبنى مرين ، ووعد السلطان بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه
برغبته فى فتحها ، فارتاح السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من
اعتقاله ، فارتد الى مكان فى الصحراء يعرف برباط أبى مدين

ونزل به حيناً يشتغل في عزلته بالقرلة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعدئذ بقليل
(سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد اليه بأن يثبت دعوته
بين القبائل وأن يحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبي حمو، فقبل
ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة
صديقه بالأمس، وانتظم في سلك الحملة التي بعثها السلطان لمطاردة
أبي حمو وأخذ يعمل تباعاً على سلاح القبائل عن أبي حمو بما كان
له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ، ولبثت جنود السلطان
تقتفي أثر أبي حمو حتى دهمته في أعماق الصحراء ومزقت معسكره،
وفر أبو حمو وآله تحت جناح الظلام، وتخلف ابن خلدون بعدئذ
لدى أسرته أياماً في بسكرة، ثم قصد إلى السلطان عبد العزيز
في تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه، وأرسله ليعمل على
تهديئة بعض الأحياء الخارجة في المغرب الأوسط وردها إلى الطاعة،
فصدع بالأمر، ولكنه لم ينجح في مهمته في تلك المرة، فعاد إلى
بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان. وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه
ابن الخطيب على السلطان في تلمسان، وقد غادر الأندلس فراراً
من بطش سلطان غرناطة بعد ما فسدت بينهما العلاقة، فاستقبله
السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه .
وكتب ابن الخطيب إلى صديقه في بسكرة يقص عليه خبره،
ويعتب عليه فيما كان منه في حقه حين مقامه بالأندلس، فرد عليه
ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه، ويدفع

عن نفسه مظنة الفتور والوقية ويهنته بنجاته (١) .

ولبت ابن خلدون مقبلا في بسكرة ، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة في جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبي بكر بن غازي ، عهد الى ابن خلدون باستمالة القبائل كركة أخرى ، فأدى ابن خلدون المهمة ، وقصد الى الوزير بمكانه بالصحراء في شيوخ القبائل الموالية ، ونظم معه برنامج العمل ، ثم عاد الى بسكرة ، ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لأنه آنس في نفس أميرها تغيرا ونزوعا الى الثورة ، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان في تلمسان ، ولكنه ما كان يصل الى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه في كفالة الوزير ابن غازي وقبول البلاط كله الى فاس ، (سنة ٧٧٤ هـ) ، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة والجنود . واعترضت القافلة أثناء مسيرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبي حمو الذي عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان ، ونهبت متاع المسافرين ، ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة ، ووصل أخيرا الى فاس في حال سيئة ، فأكرمهم الوزير ابن غازي وغمره برعايته ، وأقام في فاس موقرا مبعجلا .

وفي ذلك الحين ساءت العلاقات بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد التجأ كما قدمنا الى بني مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الى بلاط فاس

إبعاده وتشريده فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بنى الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس وهما عبد الرحمن بن يفلوس من أمراء بنى مرين والوزير مسعود بن ماسى لمناوأة حكومة فاس ، وبعثهما فى أسطوله الى شواطئ المغرب وحاصر جبل طارق وهى يومئذ من أملاك بنى مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشا لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . فاستماله ابن الأحمر وحرضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يومئذ معتقلا بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة بقرب مكاسة ، وارتد ابن غازى الى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابه . واستولى الأمير عبد الرحمن على شمال المغرب تنفيذا للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقيما بفاس ؛ فلما وقع الانقلاب ، وشى بعضهم فى حقه للحكومة الجديدة ، فقبض عليه حينئذ ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمير عبد الرحمن سلطان الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة الى الأندلس بعد أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون انه أراد اللحاق بالأندلس طلبا للاستقرار والدرس . والظاهر أن فكرة الإنقطاع الى البحث والتأليف كانت قد اختمرت فى ذهنه يومئذ ، وقد رأيناها تساوره مرارا منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب ، فجاز

البحر الى الأندلس في ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركا أسرته بفاس . ولقي في طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبدالله بن زمرك ذاهبا الى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حسابا لدسائس خصومه ، ولم يدر بخلداه أنه سيغدو موضعا للمساومة في مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شرا من استقراره بالأندلس وأبى أن تلحق به أسرته لما نمي اليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبدالرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى الى فاس ليسعى في تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الجديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقده ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربتة . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب الى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإيقاد ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يميز ابن خلدون الى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون سعى لإيقاد صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ الى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازي ، فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يرسف في سجنه حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وذهب المفكر والكاتب والسياسي العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، اذ اتهم بالزندقة فيما ورد ببعض رسائله ، فعذب وأقتى بعض الفقهاء السفلة بقتله

فقتل خنقا في سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م) (١).
وقد نقل إلينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده
ابن الخطيب في سجنه يرثى به نفسه :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة	بكهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما	وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شمس وسماء العلا	عزير فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

الفصل الخامس

العزلة والتأليف

عود ابن خلدون الى المغرب وعود الصلة بينه وبين أبي حمو . التجاؤه الى أحياء عريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخي . كتابة المقدمة وتاريخ العرب والبربر . سعيه الى العودة الى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عوده الى وطنه . اتمامه لمؤلفه ورفعته إياه الى السلطان . قصيدته يوم الإهداء . الدسائس من حوله . خروجه مع السلطان في الحملات الحربية . اعتزامه الرحلة الى المشرق وركوبه البحر . زهده في الحياة السياسية

وهكذا كاد القدر يجمع بين الصديقين لآخر مرة في ظروف مماثلة ، وكاد ينكبهما بمحنة مشتركة . ولكن ابن خلدون كان أسعد حظا من صديقه إذ اكتفى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده الى إفريقية . فنزل في مرسى هنين حائرا جزعا لا يعلم أنى يقصد . وكان أخوه يحيى قد عاد الى خدمة أبي حمو أمير تلمسان ، ولكن أبا حمو كان ناقما عليه أيما نقمة لما فعله في حقه مرة بعد مرة ، فتركه شريدا في هنين . ثم شفع في أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بني عريف ، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن في قدومه الى تلمسان ، فقدمها في عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة . ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعوله بين القبائل ، فاضط ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغما . ولكنه كان على ما يظهر

قد عاف غمار السياسة نهائيا، فما كاد يغادر تلمسان حتى ولى شطر قبلة أخرى، وسار الى أحياء بنى عريف فنزل لديهم، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان، واعتذر له أصدقائه لدى السلطان أبي حمو، وأكرم بنو عريف مشواه أيما إكرام، وانزلوه مع أسرته بأحد قصورهم في قلعة سلامة من أعمال توجين^(١)، فقطع ابن خلدون في ذلك المقر النائي المنعزل مدى أربعة أعوام، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء المستمر، بعيدا عن غمار السياسة والدسائس السلطانية، ومخاطر التجوال والحملات الحربية، وألفى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس.

وفي تلك الفترة الهادئة بدأ ابن خلدون بكتابة مؤلفه التاريخي. وكان يومئذ في نحو الخامسة والأربعين من عمره، وقد نضجت مباحثه ومطالعاته. وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة، متقلبا في خدمة القصور والدول المغربية، يدرس شؤونها ونظمها ويستقصي سيرها وأخبارها، ويجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية متغلغلا بين القبائل البربرية يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها في الحياة العامة والحياة الخاصة. وكان ذهنه الخصب، فضلا عن هذه الدراسة العملية، يفيض بثمار الإطلاع الشاسع، الذي كان يجد في تحصيله كلما سنحت الفرص في مكاتب المغرب والأندلس. وكانت عزلة مباركة موفقة، ففي ذلك المقام النائي المنعزل، كتب ابن خلدون

(١) تقع هذه المنطقة جنوب إقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية.

مقدمة تاريخه ، وألهم تلك المباحث والنظريات الخالدة التي تتبوأ
مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير البشري ، ووهب تراث العربية ذلك
الأثر الخالد الذي مازالت تزهو به وتفاخر به ، وانتهى ابن خلدون
من كتابة مقدمته العجيبة لأول مرة في منتصف سنة ٧٧٩ هـ
(١٣٧٧ م) واستغرق في كتابتها خمسة أشهر فقط ^(١) ثم نقحها
وهذبها بعد ذلك . وهو يقول لنا في دهشة من نفسه وإعجاب
بتوفيقه « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت
إليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شأبيب الكلام والمعاني على الفكر
حتى امتنخضت زبدتها ، وتألقت نتائجها » ^(٢) . ثم شرع بعد إتمام
المقدمة في كتابة تاريخه ، فيكتب منه تاريخ العرب والبربر ووزناته
أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخيرة حسب النظام
الذي انتهى به الينا . ولم يكن في برنامج ابن خلدون أن يكتب
تاريخا عاما للخلق ، بل كان قصده الأساسي أن يكتب تاريخ المغرب
والدول البربرية ، وهو ما يشير إليه في المقدمة بقوله : « وأنا ذا كر
في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحا
أو مندرجا في أخباره وتلويحا ، لاختصاص قصدي في التأليف
بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من
الأقطار ، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار
المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه » ^(٣) ، ولكنه عاد فعدل برنامجه ،

(١) راجع ختام المقدمة — ص ٥٣٤

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٤٤

(٣) المقدمة — ص ٢٧

ورأى أن يكتب تاريخاً عاماً للخليفة . ولما كان ينقصه في مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعتزم العودة إلى وطنه تونس حيث تهيء له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق . وكان ذلك في أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والاقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذي عهدناه من قبل أميراً لقسنطينة ثم انتزع بحماية من يد ابن عمه الأمير محمد وولى ابن خلدون له الحجابة حيناً ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة ، فاعتقل عندئذ أخاه يحيى في بونه وصادر أموالهم . ولبت أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ، ولجأ إليه وزيرها ابن تافراكين الذي استبد حيناً بشئونها حينما جرده السلطان أبو إسحاق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفي سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس في قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها الطفل ولد أبي إسحاق ، ثم استولى من بعدها تباعاً على جميع ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيدة الدعائم . وكانت العلائق سيئة بين السلطان أبي العباس وبين ابن خلدون منذ حوادث بحاية أغنى منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما اعتزم المؤرخ العودة إلى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب إلى السلطان أبي العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف في شهر رجب سنة ٧٨٠ واجتاز

الصحراء ومر في طريقه بقسنطينة فاستراح بها حيناً في ضيافة
الأمير إبراهيم ابن السلطان أبي العباس ، ثم قصد إلى السلطان
أبي العباس ، وكان يومئذ على رأس جيشه يعمل على إخماد الثورة
في بعض النواحي ، فلقيه بظاهر سوسة ، فحياه السلطان أجمل
تحية وبالغ في إكرامه وقربه وشاوره في أموره . ثم بعثه إلى تونس
وأصدر أوامره بتوفير ما يجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل
ابن خلدون تونس ، وطنه ومستقط رأسه ، لأول مرة منذ فارقتها
حدثاً دون العشرين في سنة ثلاث وخمسين ، واستقدم أسرته من
أحياء عريف ، وأقام في دعة وأمن وسعة عاكفاً على الدرس
والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ،
فقر به إليه واختصه بمجلسه وكلفه بإتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون
كرة أخرى بالدسائس القديمة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من
الرعاية . وكان محور هذه الدسائس خصمه الفقيه ابن عرفة شيخ
الإفتاء . ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه الخصومة ، إنه كان
يتفوق على ابن عرفة في المجالس العلمية ، وإن تلامذة ابن عرفة
هرعوا إليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسعى مع
رجال البطانة في حقه لدى السلطان . ولكن هذه السعاية لبثت
حيناً دون أثر لتمكن منزلته ومقامه .

ولما توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف
على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها إلى
مولاه السلطان أبي العباس في أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢ م)
وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة

وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة^(١)، وقد انتهى ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار الدول المغربية في عصره حتى استرجاع السلطان أبي العباس لتوزر في سنة ٧٨٣هـ^(٢). ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ، وأضيفت إليها أقسام كبيرة أخرى في تاريخ الدول الإسلامية في المشرق، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد.

وفي نفس اليوم الذي رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبي العباس، أنشده قصيدة طويلة في نحو مائة بيت، يشيد فيها بسيرته وأعماله، ويستدر عطفه ورعايته، وينوه بكتابته، وهي من أشهر قصائده، وهذا مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل	أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بعثت إليك على النوى	عز ما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوا الدنيا ومنتجع المنا	والغيث حيث العارض المتهلل
ومنها :	

أرح الركاب فقد ظفرت بواهب	يعطى عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم فى الندى	كالروض حياه ندى مخضوضل
هذا أمير المؤمنين أمامنا	فى الدين والدنيا اليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة	شهدت له الشيم التى لا تجهل
سبق الملك الى العلا متمهلا	لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا	يتسابقون الى العلاء وأكمل

(١) راجع كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦

(٢) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٦

ومنها في ذكر الكتاب :

اليك من سير الزمان وأهله
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى
تبدي التباعد والعمالق سرها
والقائمون بلمة الإسلام من
لخصت كتب الأولين بجمعها
وألنت حواشي الكلام كأنما
وجعلته لسوار ملكك مفخرا
ولله ما أسرفت فيما قلته
عبرا يدين بفضلها من يعدل
درجوا فتجمل عنهم وتفصل
وتمود قبلهم وعاد الأول
مصر وبربرهم إذا ما حصلوا
وأيت أولها بما قد أغفلوا
سرد اللغات بها لنطقي ذلوا
يهمي الندي به ويزهو المحفل
شيئا ولا الإسراف مني يحمل

على أن هذه الدعة التي تفيأ ابن خلدون ظلها مدى حين ،
ما لبثت أن غشيها الكدر . فما زال ابن عرفة وحلفاؤه خصوم
المؤرخ في دسهم وسعايتهم ؛ ولم تثمر هذه السعاية في حرمان المؤرخ
من عطف مليكه ، ولكنها أثمرت في إزعاجه من طريق آخر .
ذلك أن السلطان حينما تاهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه
في توزر وأعمالها سنة ثلاث وثمانين ، أمر ابن خلدون بالسفر معه ،
فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث
السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما
أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد إلى ضيعته
بجوار تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافرا ، فصحبته إلى تونس .
ولم تمض أشهر قلائل حتى تاهب السلطان للخروج في جيشه مرة
أخرى . فخشي ابن خلدون أن يعود السلطان إلى استصحابه
في حملاته ، وألا يستقر له قرار بعد . فاعتزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج ، يتوسل بها عذرا الى السلطان . فتضرع اليه أن ينحلي سبيله وأن يأذن له في قضاء الفريضة ، فأذن ؛ وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية ؛ وخرج الى مرسى السفينة ، في حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودّعون بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) .

* * *

وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث ؛ ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة ؛ ولم تكن مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسي ومفكر عرفته إفريقية^(١) والأندلس في القرن الثامن ؛ وكانت تلك الحلال والمواهب البديعة التي حملته الى ذروة الحوادث ، وجعلت منه شخصية بارزة في تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن ، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحيرية التي عرفت دائما بقوة الشكيمة وجفاء النزعة ، خليقة بأن تهيم له مكانة رفيعة وطيدة في دول العصر وقصوره . وقد أنفق بن خلدون ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور ، وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية ، وتمتع مرارا بمزايا الرياسة والحكم ، وذاق مرارا محن النقمة ومرارة الإعتقال والأسر وخطر الهلاك ؛ ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول التي تقلب

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره .

في خدمتها وأسدى إليها أجل الخدمات أحيانا؛ ثم إذا به يجد نفسه في هذا الملاذ الأخير الذي آوى إليه واستقر في ظلاله، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى في البحث والتأليف؛ وقد هدأت نفسه المضطربة بشغف النضال والمغامرة، وعاف أحداث الساسية، وأخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة . وكان ينشد الإستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة في وطنه، ويثوى إليه الثواء الأخير الى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة، وأزعجه كيد خصومه في مقامه الهادئ؛ وخشى أخيرا عاقبة الكيد والسعاية، ولم يجد في تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة؛ فاضطر أن يلتمس الحج عذرا للرحيل والنجاة، وأن يودع الأهل والولد، وأن يغادر الوطن وحيدا فريدا الى حيث لا يعلم ماذا هيأت له الأقدار .

٢

ابن خلدون في مصر

٧٨٤ - ٨٠٨ هـ : ١٣٨٢ - ١٤٠٦ م

الفصل السادس

ولاية التدريس والقضاء

مقدم ابن خلدون الى مصر . وصفه للقاهرة . جلوسه بالأزهر . اتصاله
بالبلط . ولايته التدريس بالمدرسة القمحية . الدرس الأول . ولايته لقضاء
المالكية . اضطراب الأفق حوله . حديثه عن القضاء . تعليق الكتاب المصريين
على مسلكه . هلاك أسرته في البحر . عزله عن القضاء وبقاؤه في منصب التدريس .
سفره للحج . ولايته للتدريس في الصرغتمشية . الدرس الأول . تعيينه شيخا
لخانقاه بيبرس . ثورة يلبغا الناصري وعزل السلطان برقوق . سقوط يلبغا وعود
برقوق الى العرش . تأملات ابن خلدون عن الدول المصرية . انقطاعه للدرس
والبحث . سعيه الى عقد الصلة بين بلط مصر وقصور المغرب .

— ١ —

غادر ابن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ
(أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) كما قدمنا ، فوصل الى ثغر الاسكندرية
في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون
إنه قدم الى مصر لينتظم منها في ركب الحاج وإنه لبث بالاسكندرية
شهرًا يهيئ العدة لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه
الغاية ، فقصد الى القاهرة^(١) . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى
حجته الظاهرة في مغادرة تونس ، وكان مقدمه الى مصر ، كما رأينا
نوعا من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٢

يقضى أيامه بمصر في هدوء ودعة، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذي لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ في الثانية والخمسين من عمره، ولكنه كان وافر النشاط والقوة، يتطلع دائماً الى مراتب النفوذ والعزة؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامي في المشرق والمغرب، ولبلاطها شهرة واسعة في حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة في أول ذي القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢؛ فبهرتة ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن^(١)، وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فإن المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحيرية المتواضعة، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردها من الزمن مدينة في عظمة القاهرة وروعها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره، ويصفها في تلك الفقرة الرنانة: « فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الاسلام، وكرسى الملك؛ تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ النيل نهر، ومدفع مياه السماء، يسيقه العلل والنهل سيحه، ويجي اليهم الثمرات والخيرات ثجه؛ ومررت

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م في عهد الناصر بن قلاوون .

في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ... » .
ولم يكن ابن خلدون نكرة في مصر ، فقد كان المجتمع القاهري
يعرف الكثير عن شخصه وسيرته ، وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا
سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه وذاعت نسخته الأولى قبل ذلك بقليل
في مصر وغيرها من بلدان المشرق ، وأعجبت دوائر العلم والتفكير
والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكذب يحل
بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول
ابن خلدون في كبرياء وتواضع معا : « وانشال على طلبة العلم بها يلتمسون
الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عذرا » ^(١) وهذا ما تشير إليه
التراجم المصرية ، فيقول أبو المحاسن بن تغري بردي في ترجمته
لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر الإقراء بالجامع الأزهر
مدة ، واشتغل وأفاد » ^(٢) ويقول السخاوي : « وتلقاه أهلها (أي أهل
مصر) وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتردد عليه ، بل تصدر للإقراء
بالجامع الأزهر مدة ... » ^(٣) . جلس ابن خلدون للتدريس
بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكي ،
ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول ،
وغيرها مما عرض إليه في مقدمته . وكانت هذه الدروس خير

(١) كتاب العبر — ج ١ ص ٤٥٢

(٢) كتاب المنهل الصافي لابن تغري بردي — نسخة دار الكتب الخطية

رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠

(٣) كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع عشر للسخاوي — نسخة

دار الكتب الفتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ ، المجلد الثاني من القسم الثاني ، ص ٣٦٧

اعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر بيانه . وكان ابن خلدون محدثا بارعا رائع المحاضرة ، يخلب الباب سامعيه بمنطقه وذلاقتيه . وهذا ما يتحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه ، ومنهم المؤرخ الكبير تقي الدين المقرئ الذي سمعه ودرس عليه فتي^(١) ، وكذا الحافظ ابن حجر ، فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحاً ، حسن الترسل وسط النظم ، مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة »^(٢) ونقل السخاوي عن الجمال البشبيشي أنه « كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة » ، وعن الركاكي « ان محاضراته اليها المنتهى »^(٣) .

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب ألباب المجتمع القاهري ، وأن يستثير إعجابه وتقديره ، ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلاً كما سنرى . وفي أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمر من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجواني^(٤) فشمله برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به ، وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق ، وقد ولي الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ،

(١) نعود الى تقدير المقرئ لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

(٢) كتاب أنباء الغمر في أنباء العمر لابن حجر العسقلاني (نسخة دار الكتب

الخطية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٣) الضوء اللامع — المجلد الثاني من القسم الثاني ، ص ٣٦٩

(٤) هكذا اسمه في « المنهل الصافي » ولكن السخاوي يسميه « الطنبغا الجواني » .

فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبتر مقامي ، وآنس الغربية ، ووفر الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادئ في ظل أمير يحميه ويكفل رزقه . ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمعية ، بجوار جامع عمرو وهي من مدارس المالكية ، فعينه السلطان فيه . ويعني ابن خلدون في تعريفه ، بوصف مجلسه الأول في هذا المعهد ، فقد شهدته جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألقى ابن خلدون في ذلك الحفل خطابا بليغا ، يحرص على إيراد بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء في شد أزور الدولة الإسلامية ، وعن تغلب الدول ؛ ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل في نصرته الإسلام ، وإعزازه ، ومن همم في إنشاء المساجد والمدارس ، ورعاية العلم والعلماء والقضاة ؛ ثم دعا للملك الظاهر ، وأشاد بعزمه وعدله وعقله ؛ وعطف بعدئذ على نفسه ، وما أوليه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية : « ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب إلى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق ، وأزهار الفنون يسقط علينا من غصنه المورق ... أولوني عناية وتشريفا ، وغمروني إحسانا ومعروفا ، وأوسعوا همتي إيضاها ونكرتي تعريفا ، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ... الخ » (١) .

(١) لم يرد وصف هذا المجلس ، ولا نص هذه الخطبة في فصول « التعريف » =

وإنه لمنظر شائق ذلك الذى يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه فى ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذى يعتقد أنه أحدثه إذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتنى العيون بالتجلة والوقار » ^(١) . وفى ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون فى كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب إحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية . ثم كانت الخطوة الثانية فى ظفره بمناصب الدولة ، وتعيينه قاضيا لقضاة

= المطبوعة الملحققة بتاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) . ولكنهما وردا فى نسخة خطية أتم من التعريف تحفظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ م تاريخ) ص ١٠٨ — ١١٠ . ونسخة التعريف المتداولة تقف فى ترجمة المؤرخ والتعريف به عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ (راجع كتاب العبر — طبعة بولاق ج ٧ ص ٤٦٢) حيث يحتتم ابن خلدون فصول التعريف عن نفسه . ولكن نسخة دار الكتب الخطية التى ذكر فى نهايتها أنها نقلت عن نسخة أصلية للمؤلف تحتوى بعد ذلك على عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر ، كتبها باسهاب عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب ، وعن بعض حوادث مصر الداخلية يومئذ ، ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه ملك التتار تيمورلنك فى دمشق وما دار بينهما من الأحاديث ثم عوده الى مصر . ويتخلل ذلك كله تعليقات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدمة . ويصل ابن خلدون فى رواية حوادث حياته هذه حتى سنة ٨٠٧ هـ . أعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط . وتشغل هذه الفصول فى النسخة الخطية المذكورة نحو أربعين صفحة كبيرة (من ص ١٠٧ حتى النهاية) . وسنعود الى الكلام عن « التعريف » فى فصل خاص .

المالكية في أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ (أغسطس ١٣٨٤م) ^(١) مكان القاضي المعزول جمال الدين بن خير السكندري . وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذي هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيدانا بوثوب العاصفة من حوله ، واضطرام تلك الخصومات التي كدرت صفو مقامه ، وأدالت نفوذه ، واقتلعت من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون في سخرية : « وأقيمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات المملوكية ، فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين أمرائه ، فتفاديت من ذلك ، وأبى إلا مضاءه » ^(٢) . وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات المملوكية » ، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم في معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة مملوكية فقط ، وإنما اختاره السلطان كما يقول ، « تأهيلا لمكانه وتتويها بذكره » .

— ٢ —

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن

(١) يذكر ابن خلدون أن تعيينه في هذا المنصب وقع لأول مرة في رجب سنة ٧٨٦ . ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان في جمادى الآخرة (السخاوي في الضوء اللامع ؛ وابن تغري بردي في المنهل الناصي كل في ترجمته لابن خلدون — والسيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أنه بدأ بمباشرة وظيفته في رجب ، وأنه يجعل من التعيين وبدأ العمل واقعة واحدة .

(٢) نسخة التعريف الخطية — ص ١١١

حادثا عاديا . فقد كان أجنبيا ، وكان تقدّمه في حظوة السلطان ،
وفي نيل المناصب ، سريعا . وكانت مناصب التدريس والقضاء
دائما مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ؛ ولم يكن مما يحسن
وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذا فقد تولى
العلامة المغربي منصبه في جو يشوبه كدر الخسومة والحسد .
وجلس بمجالس الحكم في المدرسة الصالحية بحى بين القصرين ؛ فلم
يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية .
ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه العاصفة التي ثارت حول
توليه القضاء ، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ
من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ،
وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل
وفساد في الذمة ؛ وانه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل
شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض .
يقول : « فقامت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت
جهدى بما أمنى عليه من أحكام الله لا تأخذنى في الله لومة ،
ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ؛ مسويا بين الخصمين ، آخذ
الحق الضعيف من الحكيم ، معرضا عن الشفاعات والوسائل
من الجانبين ؛ جانحا الى التثبت في سماع البيّنات ، والنظر
في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطا
بالفاجر ، والطيب متلبسا بالخبيث ؛ والحكام ممسكون عن
انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون
به من الإعتصام بأهل الشوكة ؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمرء ،

معلمون للقرآن وأئمة للصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون
بهم الخير ؛ ويقسمون الحظ من الجاه في تركيتهم عند القضاة ،
والتوسل لهم ؛ فأعضل دأؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس
بين الناس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع
العقاب ، ومؤلم النكال ... » ثم يعدد نواحي الفساد التي شهدوها ،
وجد في إصلاحها وقعها ، وكيف مضى في سبيله « من الصرامة
وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا
لما اصطاح عليه زملاؤه القضاة من قبولها ، حتى ثار عليه السخط
من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت في حقه السعاية
لدى البلاط (١) .

وهذا التعليل الذي يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة
عليه ، واضطرام الخصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة
والصدق . بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة
من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلاً مشيراً الى ولايته للقضاء :
« فباشره بجرمة وافرة ، وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ودفع
رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا في التكلم
في أمره ... » (٢) . ويقول ابن حجر وينقله السخاوي : « فتنكر
(أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقيم لأحد من القضاة لما دخلوا
للسلام عليه مع اعتذاره لمن عيبه عليه في الجملة ، وفتك في كثير من
أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وشبهة الزج ،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ .

(٢) المنهل الصافي — ج ٢ ص ٣٠١ .

فإذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصنع حتى تحمر رقبته»^(١) .
وفما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص . وسنرى
أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد في نقده وتجريحه ؛ ولكن
في قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر في قضائه عن نزاهة
وحزم وصرامة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حينما
يقول عنه في موضع آخر: «ولم يشتهر عنه في منصبه إلا الصيانة» .
انقضت العاصفة على ابن خلدون اذاً لأشهر قلائل من ولايته ،
وكثر السعى في حقه والإغراء به حتى «أظلم الجوينه وبين أهل
الدولة» على حد تعبيره ، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف
ومؤازرة . واصابته في ذلك الحين نكبة أخرى هي هلاك زوجه
وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به ؛ ولكن
سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس ،
فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه في تخليته سبيل
أسرته ففعل ، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر .
ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة في قوله : «ووافق ذلك مصابى
بالأهل والولد . وصلوا من المغرب في السفين ؛ فأصابها قاصف
من الرياح ، فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم
المصائب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب» .
ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء ،
أو بعبارة أخرى ، حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا

(١) ابن حجر في رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) في ترجمة

ابن خلدون ؛ والسخاوى في الضوء اللامع المجلد الثاني من القسم الثاني ص ٣٦٧ .

العزل جاء محققا لرغبته إذ يقول : « وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة ، وتخليه سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها ، فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطني من عقابها ، فانطلقت حميد الأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال في بالعودة » والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا في المجتمع القاهري ، وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد اننا سنرى ، حسبا يشير في قوله المتقدم ، انه كان يُرمى بجهل الأحكام والإجراءات وبأنه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء ، وبأنه كان مشغوبا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه .

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة في السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) ، أغنى لنحو عام فقط من ولايته ، فانقطع إلى الدرس والتأليف كرة أخرى على أن هذا العزل لم يكن إيذانا بسخط السلطان ونقمته ؛ فقد لبث ابن خلدون في منصب التدريس بالقمحجية ؛ ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التي أنشأها في حي بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره في تواضع ظريف . واشتغل بالدرس في المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان

وغمره بعطائه . وغادر القاهرة في منتصف شعبان ، وقصد الى
الحجاز بطريق البحر ، ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضا
حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة
في جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ) ، وقصد السلطان توا
وأخبره بأنه دعا له في الأماكن المقدسة ، فتلقيه بالعطف والرعاية .
ثم خلا كرسي الحديث بمدرسة صرغتمش^(١) ، فولاه السلطان إياه
بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية ، وجلس للتدريس
فيها في المحرم سنة إحدى وتسعين ، وألقى خطاب الإفتتاح كعادته
في حفل فخم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة في هذا الدرس كتاب الموطأ
للإمام مالك ، ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول في ذلك
اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع
مذهبه ، ثم يقول لنا في كبريائه المعهود : « وانفض ذلك المجلس ،
وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتي للمناصب
القلوب ، وأخلص النجا في ذلك الخاصة والجمهور »^(٢) .

— ٣ —

ثم عين المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة (نظارة) خانقاه
بيبرس ، وهي يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجئ الصوفية^(٣) ، فزادت
جرايته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل ، فقد
نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق ، بطلها ومديرها

(١) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولوني على مقربة من القلعة .

(٢) التعريف (النسخة الخطية) — ص ١٢١

(٣) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه .

الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ؛ وكانت نظم البلاط القاهري وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخianات مما يسمح بتكرار هذه الفتن ؛ وكان يلبغا الناصري نائب السلطنة من قبل ، وزعيم عصابة قوية من الأمراء والفرسان ؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه ؛ ولكنه استطاع في فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤) أن يظفر بالعرش دونه ، وأن يجرده من سلطته ونفوذه ، وأن يقصيه الى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار الى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصري القاهرة ، وأعاد الصالح حاجي السلطان المخلوع الى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، فقبض على الناصري ، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذي استطاع أن يفر من سجنه ؛ فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه في صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط من عزله . ويخصص ابن خلدون في «تعريفه» فصلاً لهذه الحوادث^(١) ، ويمهد له بشرح فلسفي اجتماعي يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فيها روحاً جديداً من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول الممالك المصرية منذ صلاح الدين ، ويقص تاريخها باختصار . وهنا

(١) راجع هذا الفصل في التعريف (النسخة المخطوطة) ص ١٢٢ وما بعدها —

وراجع خطط المقرئزي (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٢

يبدو ابن خلدون كما يبدو في مقدمته ، ذلك الفيلسوف الاجتماعي الذي يعنى بتعليل الظواهر والكائنات ، واستقراءها في حوادث التاريخ .

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذي يتمتع بعطفه ورعايته . فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه . يدل على ذلك قوله في التعليق على عود الظاهر : « ثم أعاده الى كرسيه للنظر في مصالح عباده ، وطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت ، فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته » (١) .

ولبت ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧) ، في الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه . ولكنه يمضى في هذا التعريف مراحل أخرى ، في النسخة المخطوطة التي أتينا على ذكرها ، ويفصل حوادث حياته حتى مختتم سنة ٨٠٧ ، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر . والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا وإسهابا حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمة ، ولهذا آثرنا الرجوع اليها الى جانب النسخة المتداولة في كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر

سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهري وسلاطين المغرب . ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات المملوكية ، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب ، وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين ، ويصف الهدايا المصرية والمغربية ، ثم يعطف على مساعيه فى عقد الصلة بين الملك الظاهر وسليمان تونس ، وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على اهداء ملك مصر ، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة ، ولكنها غرقت مع السفينة التى كانت تحمل أسيرة المؤرخ كما قدّمنا . ورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس ، ثم بعث سنة تسع وتسعين الى المغرب ليشتري عددا من الجياد ، فزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا بهدية نخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر ارسالها ، وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب ، ومنها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما « تناول بين هؤلاء الملوك من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد » .

الفصل السابع

في دمشق وفي معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون الى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية الناصر فرج . رحلة ابن خلدون الى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار للشام . مسير الناصر فرج الى لقاء الغزاة . استصحابه لابن خلدون الى دمشق . عوده بجأة الى مصر . نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسيره الى معسكر تيمورلنك . وصفه للقائه مع الفاتح . حديثه مع تيمورلنك . رسالته عن جغرافية المغرب . حديث الخلافة مع الفاتح . هدية ابن خلدون لتيمورلنك ، ومفاوضاته في الصلح . رواية المقرئى وابن اياس وابن عربشاه عن هذه المفاوضات . استئذان ابن خلدون للفاتح في السفر . عوده الى مصر . سعى ابن خلدون الى استعادة منصب القضاء . ولايته للمرة الثالثة . اضطرام الدساس من حوله . ذروة المعركة بينه وبين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء والعزل منه . وفاة ابن خلدون .

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيدا عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما ، يحول بينه وبين توليه ، على قوله ، ذلك الجناح من البلاط الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ، فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه . وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التمسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالقيوم يعنى بضم قمح ضيعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة "القمحية" فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة

الثانية . ثم توفي السلطان بعدئذ بقليل ، في منتصف شوال ؛ خلفه ولده الناصر فرج ؛ وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطربت الفتن والثورات المحلية حيناً . فلما استقرت الأمور نوعاً ، استأذن المؤرخ في السفر الى بيت المقدس ، فأذن له ؛ وجال ابن خلدون في المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة ؛ وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القيامة (قبر المسيح) . يقول لنا ” وبناء أُم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه “ ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام في ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان سنة ٨٠٢

وفي المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهرًا بارزًا لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م) ^(١) ثم اخترق الشام جنوباً الى دمشق . فروع مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب فى المقرئى : السلوك فى دول الملوك —

(مخطوط دار الكتب المصرية) — ج ٣ ورقة ٢٣

والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التي ذكرته بما عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتملص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان ” بلين القول ، وجزيل الانعام “^(١) . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة . وكان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ، فوصلت الى دمشق في جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء في المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح في ظاهر دمشق في معارك محلية . ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافا حدث في معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبوا مؤامرة لخلعه ، وتولية أمير آخر يدعى لاجين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا الى القاهرة فوصلها في جمادى الآخرة^(٢) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة في يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقا على

(١) التعريف : النسخة المخطوطة . ويقول المقرئ إن أوامر السلطان

ليشبك كانت صريحة في إرغام ابن خلدون على السفر (السلوك — ج ٣ ورقة ٢٤) .

(٢) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٦

ما شجربين القادة من خلاف "وبلغنى الخبر، نخشيت البادرة على
نفسى ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت
الخروج ، أو التدى من السور لما حدث عندى من توهّمات
ذلك الخبر" (١) . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور،
وألقى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى
عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، واتمس منهم مقابلة
تيمور، فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح .
ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : "ودخلت
عليه بخيمة جلوسه ، متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين
يديه تشرىها الى عصب المغل ، جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا .
فلما دخلت عليه ، فأنحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع ،
فرفع رأسه ، ومد يده الى فقبلتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث
انتهيت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان
من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا" (٢) .

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره
وسبب مقدمه الى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه
وأحواله وسلاطينه ، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف
المغرب . وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين
سنة أعنى مذ تألق نجمه وبرز مجده ، وشرح له طرفا من آرائه
ونظرياته الاجتماعية فى العصية والملك . ولا ريب أن مفاوضة

(١) التعريف : النسخة المخطوطة .

(٢) التعريف : النسخة المخطوطة .

في شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والقاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ، فقد فتحت دمشق أبوابها للقاتح على أثر ذلك ، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة . ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً ، ثم انصرف واشتغل أياماً بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنتي عشرة كراسة صغيرة ، ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية^(١) .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش القاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة في المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب وأضرموا النار في معظم أحيائها ، وتكررت المناظر المروعة التي وقعت في حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالقاتح بل لبث متصلاً به يتردد لزيارته خلال المحنة ، وحدثه تيمورلنك ضمن ما حدث بأمر شخص تقدم إليه مدعياً بالخلافة وأنه سليل بني العباس ، وجرت مناقشات فقهية طويلة في شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته في الخلافة . وقدم ابن خلدون أيضاً إلى القاتح هدية هي « مصحف رائع وسجادة أنيقة ونسخة

(١) لم تصل إلينا هذه الرسالة التي كتبها ابن خلدون في وصف بلاد المغرب ، ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مفصلة مما كتبه في ذلك في تاريخه الكبير في القسم الذي يخصه لتاريخ البربر ويمهد له بوصف عام في جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها) .

من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة « ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . والتمس المؤرخ منه في هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فأجابه الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هي رواية ابن خلدون عن صلته بالفتح التتري ، وما وقع له معه من المحادثات والمقابلات ، وقد كان فيها يؤدى دور السياسى القديم . ولكن مؤرخا مصر يا كبيرا معاصرا هو المقرئزى يفصل هذه الحوادث تفصيلا آخر فيقول لنا إن الذى فاوض تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقي الدين بن مفلح الحنبلى ، أرسله الزعماء الى الفاتح إجابة لطلبه فى عقد الصلح بعد أن فشل فى اقتحام المدينة بالعنف ، وإن ابن مفلح بذل نفوذه لإقناع الزعماء بالتسليم ، وأنه هو الذى تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء ، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان ، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والأسلاب . ولكن تيمورا نكت بعد ذلك عهده ، وقبض على ابن مفلح وزملائه ، واقتحم جنده المدينة ونهبوها واضرموا النار فيها ^(١) . ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس ، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية ^(٢) . على أن المقرئزى يؤيد رواية ابن خلدون

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٧

(٢) ابن إياس فى « تاريخ مصر » (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و ٣٣٢

في مكان آخر فيقول لنا إنه « لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار الى تيمورلنك ، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده ، ثم أذن له بالمسير الى مصر فصار اليها » ، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه جماعة بشفاعته (١) . وابن خلدون صريح في روايته في أنه هو المفاوض والوسيط في عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وأنه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ، ولا شك عندنا في روايته . وهي من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقي مؤرخ تيمورلنك الذي كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ، ويصور لنا في عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات (٢) . على أن صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك في المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا أخرى غير ما وفق اليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة ، ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في ظل رعايته ونعمائه . على أنه لم يوفق بلا ريب إلى تحقيق مثل هذه الأمنية ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء في دمشق ، وذهب إلى تيمور يستأذنه في العود إلى مصر ، فأذن له وطلب اليه في تلك

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٨

(٢) ابن عربشاه في كتاب « عجائب المقدور » (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها .

وراجع كتابي « مصر الاسلامية » ص ١٢١

المقابلة أن يقدم اليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها، وبعث اليه تيمورثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق في شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها، ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه، ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة في أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة . وهنا يهتف المؤرخ مغتبطاً بنجاة «وحمدت الله على الخلاص» ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق، يصف هذه الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك، ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

وما كاد ابن خلدون يستقر في القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء . وقد رأينا انه كان يحتفظ دائماً بكرسى التدريس في مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ؛ وكان ابن خلدون يشعر وهو في ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة، انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذي اعتاد أن يتمتع به في جميع علاقاته السلطانية؛ وكانت المعركة التي تضطرم حول ذلك الكرسي، والتي شهدنا مظاهرها في تكرار تعيينه وعزله، تذكى بلا ريب في نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسي، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابداً الى مسند النفوذ والجاه . ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصري نزيه ثقة في إشارة موجزة إذ يقول لنا في خاتمة ترجمته للمؤرخ «رحمه الله، ما كان أحبه

في المنصب» (١) . وكان ثمة شيء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب ؛ فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة ، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته في القصر وان يتغلب على كيد خصومه ، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه في حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية في المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا في ركب السلطان الى الشام ، فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس في حقه ، وزعم بعضهم انه هلك في حوادث دمشق (٢) . ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا انه على أثر هذا الإرجاف في حقه عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الاقفهسي (جمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الاقفهسي ، وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان (٣) ، فلبث في منصبه زهاء عام يعمل في جوفيفض بالأحقاد والخصومة ، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وانه استمر كما كان «من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض» . فاضطربت

(١) ابن تغرى بردى ، في المنهل الصافي — ج ٢ ورقة ٣٠١ .

(٢) التعريف : في النسخة المخطوطة .

(٣) يذكر ابن خلدون في التعريف أن تعيينه هذه المرة كان في «أواخر شعبان»

ولكن ابن تغرى بردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠١) ويقول ابن إياس انه كان في ١٣ رمضان (تاريخ مصر

١ ص ٣٣٧) .

من حوله الدسائس القديمة، واشتدت في حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كرة أخرى في ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى في أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل. والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه ما لم يعان من قبل، حتى أنه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووجه إليه كثير من التهم. ويقول لنا ابن حجر والسخاوى في هذا الموطن: « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له الإهانة ما لا مزيد عليه » (١). وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر، وبقي مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينئذ بين ابن خلدون والبساطى، مما يدل على أن البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوئ المؤرخ فى هذا الدور من المعركة. والظاهر أيضا أن ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه، فإنه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة، واستمر فى المنصب عاما وشهرين، ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الأول سنة ست (٨٠٦)، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع، وأعيد

(١) ابن حجر فى كتاب «رفع الاصر عن قضاة مصر» (مخطوط دار الكتب

السالف الذكر) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوى فى الضوء اللامع.

ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسي فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسي لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل في شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث في منصبه بضعة اسابيع فقط ^(١) . وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) توفي المؤرخ والمفكر الكبير ، قاضيا للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ، ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ^(٢) ، وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . ويصل ابن خلدون في تدوين أخبار هذا النضال العجيب حتى عزله للمرة الخامسة في ذى القعدة سنة سبع اعني الى ما قبل وفاته بعدة اشهر فقط .

(١) راجع في أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل — ابن خلدون نفسه في التعريف (النسخة الخطية ص ١٤٧) ، وحسن المحاضرة للسيوطي (مصر) ج ٢ ، ص ١٢٣ ، والمناهل الصافي (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة في التواريخ في مختلف الروايات .

(٢) السخاوي في الضوء اللامع — المجلد الثاني من القسم الثاني — ص ٣٧٠ .

الفصل الثامن

ابن خلدون والتفكير المصرى

ابتعاد ابن خلدون في مصر عن أحداث السياسة . إنتاجه الأدبى فى هذه الفترة . حكم ابن خلدون على المصريين . بذور الخصومة بينه وبين المجتمع القاهرى . حملات الكتاب المصريين عليه . موقف الحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الركراكى والبشيشى والعينى فى حقّه . حملة السخاوى عليه . الجناح الذى يؤازره من الكتاب المصريين . تقدير المقرئى له ولتفكيره . تأثر المقرئى بتفكيره ونظرياته . ظهور هذا التأثير فى كتابات المقرئى . نظريات المقرئى فى أسباب محن مصر . شهادة أبى المحاسن لابن خلدون . اقتباس الفلقشندى من آثاره . حياة ابن خلدون فى مصر . عزلته وآلامه المعنوية . أين كان يقيم فى القاهرة . أين يثوى الثواء الأخير .

— ١ —

قضى ابن خلدون فى مصر ثلاثة وعشرين عاما (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجا .

فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التى قضها ابن خلدون بالمغرب ، والتى جاز خلالها معتركا شاسعا من المغامرات والدسائس الخطرة ، وعانى كثيرا من الخطوب والمحن ، كما نعم مرارا بمراتب النفوذ والسلطان ، والتى هى فى الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب فى أواسط القرن الثامن ؛ هذه الحياة المضطربة العاصفة ، استبدلها المؤرخ فى مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة .

وفي مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ، يتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ، وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية . على أن المؤرخ لقي في هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ولقاؤه للفاتح التتري تيمور لنك .

وأما عن الإنتاج الأدبي ، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته ، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديدا ، غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتب والمراجع الشاسعة ، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهديب والإضافة فى التاريخ والمقدمة ، وسنرى فى فصل قادم أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما فى أنباء الدول الإسلامية بالمشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره ، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٨٨٣ ، عام الفراغ من وضع مؤلفه . كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول الممالك المصرية ، ونشأة التتار . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفا لبلاد المغرب ورفعها الى تيمور لنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببحث مبادئ وآرائه الاجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشئ له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بأرائه ومناهجه ، وقد كان حريا أن ينشئ مثل هذه المدرسة في بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواما طويلة . نعم إن التفكير المصرى المعاصر ليس خلوا من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذى كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث في مدرستها التاريخية التى كانت يومئذ في أوج قوتها ، كان ضئيلا محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى الروح الذى استقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ، فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين في مقدمته بأنهم قوم « يغلب الفرح عليهم والحفة والغفلة عن العواقب »^(١) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة في معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى فإنها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت في حقهم بغير الإستياء والحفيظة . وكان طبيعيا أن يحدث هذا الغرس السيئ أثره في شعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يحيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الحفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ ، أو في تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الأدبى ينقسم عندئذ الى

شيع وطوائف تتحاز كل شيعة أو طائفة الى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه في ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون جاء ينتظم في سلك هذا المجتمع منافسا في طلب الجاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق ، أو يلقي خالص المودة والصدقة . هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الحفاء والقطيعة .

كان طبيعيا أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه في هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير وأن تكون محدودة الذبوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جليا في بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير ، فهو يقول لنا في كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مرارا وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصا في التاريخ » وإنه « كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمر خصوصا متعلقات المملكة » ، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه ^(١) . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل في ترجمته كثيرا مما قيل في ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا في تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار

(١) رفع الإصر (المخطوط المشار اليه) ورقة ١٦٠ - ونقله السخاوى في

المشرق»^(١) ويعارض المقرئ في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز
بغير «البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية» وان
محاسنها قليلة، «غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسنا ما ليس
بحسن»^(٢) وأما ابن خلدون كقاض فإن ابن حجر يقول لنا إنه باشر
القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر، وأنه لما ولى المنصب
تنكر للناس وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود، وأنه عزل
لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة^(٣)، ثم ينقل في هذا الموطن
كثيرا مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه. من ذلك «ان أهل المغرب
لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة
بحيث قال ابن عرفة^(٤)، كما نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما
وليا هذا عددناها بالضد من ذلك» ومن ذلك قول الركاكي أحد
الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون «انه عيرى عن العلوم الشرعية»
بل ينقل ابن حجر أيضا بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التي
قيلت في حق المؤرخ؛ من ذلك ما نقله عن العينتابي وهو أنه كان
يتهم بأمو رقبية^(٥)، وما نقله عن كتاب القضاة للبشيشي، وهو «أن
ابن خلدون كان في أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشر
الأحداث وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط» وأنه

(١) أنباء الغمر في أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) — ج ١ ص ٧١١

(٢) رفع الإصر — ورقة ١٦٠

(٣) رفع الإصر — ورقة ١٥٩

(٤) ابن عرفة مفتي تونس، وكان خصما لابن خلدون كما قدمنا

(٥) أنباء الغمر — ١ ص ٧١١

كان « يكثر من الازدراء بالناس ، وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فإذا ولى المنصب غلب عليه الجفاء والتزق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » . وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطربة ، ومبالغة في الانتقاص تتحدر إلى معترك السباب والقذف . وقد كان البشيشي ^(١) بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ في كتاب ألفه في تاريخ القضاة ولم يصل إلينا ولكن ابن حجر ينقل إلينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيرا يقول ابن حجر إن ابن خلدون كان يتمسك بزيه المغربي ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشيء سوى حبه المخالفة في كل شيء ^(٢) .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو إلى التأمل ؛ فهو على رغم اتزانه واعتداله وتحفظه ينساق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفاً في كتاباته . ولا ريب أن في لهجته وأقواله مبالغة وتحامل . ولكن لا ريب أيضا أن لها قيمتها في تقدير رأى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشتد في تجريحه

(١) وهو الجمال عبد الله البشيشي . ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حيناً " ترجمته في الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١ " .

(٢) رفع الإصر فى مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون — الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠

والحملة عليه ؛ وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيرا من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، والجمال البشبيشي ، والركراكي ، وبدر الدين العيني (العيتابي) . وقد امتدت آثار هذه الحصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجري حتى جاء السخاوي في أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر في ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن في لهجة مرة لاذعة تم عن الخبث وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو في معجمه (الضوء اللامع) في معظم تراجم الشخصيات البارزة ؛ بيد أنه يعترف في كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ، ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا^(١) .

— ٢ —

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوى من الرأي المصرى المفكر . وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقي الدين المقرئ . فقد درس المقرئ في فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، ورائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدث المقرئ عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته « بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة »^(٢) ويتتبع أخباره في مصر والشام في كتابه « السلوك » ويترجمه في كتابه « درر العقود الفريدة » بأسهاب وأعجاب ،

(١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ — (مصر) ص ١٥١

(٢) راجع خطط المقرئ — ج ٢ ص ٧٦ و ١٩٠

ويرتفع في تقدير مقدمته إلى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ،
 وإنه لعزیز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم
 ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ،
 وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبيء
 عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف
 من الماء سرى به النسيم » (١) . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر
 كما قدمنا . ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوى على المقریزی موقفه
 من ابن خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط في تعظيمه وإجلاله ،
 ويقدم إلينا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقریزی كان
 ينتمى إلى الفاطميين وابن خلدون يجزم باثبات نسبهم ، ثم يقول
 لنا ، إن المقریزی غفل في ذلك عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان
 لانحرافه عن آل على ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر
 من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى
 الألوهية (٢) .

وقد تأثر المقریزی فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون
 بنظرياته تأثرا كبيرا . وظهر هذا الأثر واضحا في كتابه « إغاثة الأمة
 بكشف الغمة » الذى انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار

(١) لم يصلنا من « درر العقود الفريدة » سوى قطعة صغيرة . واعتمادنا
 هنا على ما نقله السخاوى وابن حجر عن المقریزی — فى الضوء اللامع للسخاوى ؛
 وفى رفع الإصر وأنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الإصر — الورقة ١٦٠ — ونقله السخاوى فى الضوء اللامع .

الكتب المصرية (١) .

ففى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقرئى إنه كتبه فى ليلة واحدة من لىالى المحرم سنة ٨٠٨ ، والذى يتحدث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور إلى عصره ، ينحو المقرئى فى الشرح والتعليل منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدمته . فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر ، وما يخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرق منذ الطوفان إلى عصره ، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون فى البحث والتعليل واضحا ، بل نرى المقرئى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل « أحوال الوجود وطبيعة العمران » وما إليها . وفى رأى المقرئى أن أسباب الحراب والمحن ، ترجع أولا : إلى تولية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها ، وثانيا : إلى غلاء إيجار الأطنان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الانتاج) على الغلة ، وثالثا : إلى ذبوع النقد المنحط ، ويتبع ذلك بنبذة فى تاريخ العملة فى الدول الإسلامية ومصر . ثم يتحدث عن طبقات المجتمع ، وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

(١) توجد هذه النسخة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم (٧٧ مجاميع م) وتشغل

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، وأصحاب المعاش

وهم السوق .

(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحراث وسكان الريف .

(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم .

(٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن .

(٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس .

ويذكر المقرئ أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن

أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية ، ويختتم بشرح رأيه

في معالجة هذه المحن ، وهو أن يغير نظام العملة ، فلا يستعمل

منها إلا المكيين الشابت من ذهب وفضة ، وهى فكرة تثبت

النقد بعينها .

هكذا ينحو المقرئ فى الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر

المؤرخ واضحاً فى منهج تلميذه ، ونستطيع أن نجد كثيراً من أوجه

الشبه بين ما يعرضه المقرئ فى رسالته ، وبين ما كتبه ابن

خلدون فى مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فسادة ، وعن السكة ،

وعن أثر المكوس فى الدولة ، وأثر الظلم فى خراب العمران ، وكيف

يسرى الخلل الى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط ،

وغير ذلك مما يتعلق بالخلل الدول وسقوطها ،^(١) بل نستطيع أن

نلمح مثل هذا الأثر فى بعض ما كتبه السيخاوى نفسه فى كتابه

« الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره فى دراسة أحوال

(١) راجع هذه الفصول فى مقدمة ابن خلدون ، ص ١٤٠ — ١٤١

١٥٧ — ١٥٨ و ٢١٧ — ٢٢٠ و ٢٤٦ و ٢٥٢ .

الأهم، فهنا يبدو السخاوى أيضا رغم خصومته لابن خلدون متأثرا
بفكرته الفلسفية في شرح التاريخ وفهمه .
وهناك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى
يشاطر شيخه المقرئى تقديره لابن خلدون، ويشيد بمقدرته ونزاهته
في ولاية القضاء، ويقول لنا انه باشر القضاء بحكمة وافرة وعظمة
زائدة وحمدت سيرته^(١) .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضا في اعتماد بعض أكابر الكتاب
المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن
هؤلاء أبو العباس القلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى »
فانه يقتبس من ابن خلدون في مواضع شتى من موسوعته^(٢) .

— ٣ —

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون في مصر، وصلاته
بحياتها العامة ، وأثره في حركتها الفكرية المعاصرة .
وهذه الحقبة من حياة المؤرخ ، وهى حقبة طويلة امتدت
ثلاثة وعشرين عاما ، تحالف في نوعها وظروفها حياته بالمغرب ،
ففى المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسيا يتقلب في خدمة
الدول والقصور المغربية ، ويخوض غمر دسائس ومخاطر لانهاية
لها . ولكنه عاش في مصر عالما وقاضيا ، واذا استثنينا مفاوضاته
مع تيمورلنك في حوادث دمشق ، وسعيه الى عقد الصلة بين بلاط

(١) المنهل الصافي - ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

(٢) راجع « صبح الأعشى » ج ٤ و ٥ و ٦ ففيها أمثلة كثيرة من هذا

الاقتباس .

القاهرة وسلاطين المغرب ، فانه لم يتح له أن يؤدي في سير السياسة المصرية دورا يذكر . واذا كان ابن خلدون قد خاض في مصر معترك الدسائس أيضا ، فقد كان هذا المعترك محليا محدود المدى ، شخيصيا في نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون في مصر أكثر استقرارا ودعة ، وأوفر ترفا ونعما من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن سحبا من الكآبة والألم المعنوي كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون في مصر غريبا بعيدا عن وطنه وأهله ، وكان يعيش في جو يشوبه كدر الخسومة وجهد النضال . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد في نفس المؤرخ في بعض المواطن ، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته » ، وهو يكشف لنا عن هذا الألم في مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا في إذكاء هذا الألم المعنوي ، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة في فترات كثيرة ، وهو يشير إلى ذلك في بعض المواطن ، حيث يقول لنا انه : « لزم كسر البيت ممتعا بالعافية لا بسا برد العزلة » . وتشير التراجم المصرية الى هذه العزلة فيقول لنا السخاوي : « ولازمه (أى المؤرخ) كثيرون في بعض عزلاته ، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل في هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب

والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشير الى ذلك في عدة مواضع .

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة . ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشبيشى ؛ ويقول الجمال فى أولهما : « انه كان يوما بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه ... » فيلوح من هذه الإشارة ان المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية فى الحى الذى تقع فيه هذه المدرسة أعنى حى بين القصرين أو فى أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ولان إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها^(١) . وأما فى النص الثانى فيقول لنا الجمال ما يأتى مشيرا الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عوده من دمشق سنة ثلاث وثمانمائة : « الا أنه (أى ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ... الخ »^(٢) . ويستفاد من ذلك ان المؤرخ كان يقيم فى هذا الحين فى أحد الأحياء الواقعة على النيل ، ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لاتزال بقية من الأحياء الرفيعة التى قامت هنالك مذ خُطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط فى أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة فى الضفة المقابلة لها من الفسطاط .

(١) راجع خطط المقرئى - ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص . ويراجع النصان فى كتاب رفع الإصر لابن

حجر فى ترجمة ابن خلدون .

ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحى .
هذا وأما مثوى المؤرخ الأخير ، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن « بمقابر الصوفية خارج باب النصر » . ويحدثنا المقرئ عن موقع هذه المقابر^(١) وقد كانت تقع بين طائفة من التراب والمدافن التي شيدها الأمراء والكبراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية فى أواخر القرن الثامن فى هذا المكان وخصصت لدفن الصوفية ، وقد كان المؤرخ كما نذكر ، ممدى حين شيخا لخانقاه بـيـرس .

فهل يكشف لنا الزمن يوما عن مثوى رفات المفكر العظيم فيغدو قبره أثرا جليلا يحج اليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره ؟

(١) الخطط - ج ٢ ص ٤٦٣ .

الكتاب الثاني

تراث ابن خلدون
الفكرى والاجتماعى

الفصل الاول

علم العمران كما يعرضه ابن خلدون

فهم ابن خلدون للتاريخ . علم العمران أو الاجتماع البشرى . كيف يعتبره اساسا لفهم التاريخ . تحليله لظواهر المجتمع . تقسيمه لعلم العمران . محتويات المقدمة . نقد ابن خلدون لكتاب التاريخ . استعراضه لموضوع علمه . نظريته في العصبية . ابن خلدون والعرب . حملته عليهم . حديثه عن الدولة والملك . نظريته في عمر الدولة . الملك وأصنافه . نشأة المدن والامصار . المعاش ووجوه الرزق . انواع العلوم .

يمتاز ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين المسلمين بل عن جميع المؤرخين قبله بأنه نظر الى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط . وقد أراد أن يكتب التاريخ على ضوء منهج جديد من الشرح والتعليل ، فانهى به التأمل والدرس الى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية ، وكتب مقدمة مؤلفه التاريخى لتكون شرحا وتمهيدا يقرأ على ضوءها التاريخ وتفهم وقائعه ، فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق ، تسجل مذهبها جديدا فى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها ، وفى فهم التاريخ ونقده وتحليله .

ويصف لنا ابن خلدون هذا البحث الجديد الذى وفق اليه بأنه علم مستقل بنفسه ، وأنه ذو موضوع خاص «وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى» وذو مسائل «هى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى» . ويقوى لنا إن هذا العلم «مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة» انتهى اليه

بالبحث الخاص ، ولم يقف لأحد قبله على كلام فيه ، اللهم الا اذا كان القدماء الذين عفت آثارهم ولم تصلنا ، فهو أول من وضعه ونظم أصوله وشروحه .

ولهذا العلم الحديد الذى ابتكره ابن خلدون ، فى فهم التاريخ ، ودرسه اهمية كبيرة ، فهو فى رؤية قانون لتمحيص الحق من الباطل فى الرواية وإظهار الممكن والمستحيل ، وذلك « بأن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له ، واذا فعلنا ذلك ، كان ذلك قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه » ، ومحاولة فهم التاريخ على هذا النحو هى التى حملت ابن خلدون على درس هذا الموضوع الحديد ، وهو ما يسميه العمران أو الاجتماع البشرى ^(١) .

بيد أن ابن خلدون ينظر الى موضوعه من أفق شاسع جدا ، ويجعل من المجتمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطواره منذ نشأته وبدأوته الى استقراره وانتظامه فى المصر والدولة ، وتردده بين الضعف والقوة ، والفتوة والكهولة ، والنهوض والسقوط ، ويستقصى خلال ذلك ، أحوال هذا المجتمع وخواصه ، وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ، وما يعرض لهذه العناصر فى حياتها الخاصة والعامة من الظروف

والأحوال ؛ وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده
وانحلاله ، فهو في الواقع يعالج مادة شاسعة تفوق تعريفه الأول .
وفي مكان آخر يخلص ابن خلدون ، مادة علمه من الناحية
الموضوعية في أنها « ما يعرض للبشر في اجتماعهم من احوال العمران
في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضح بها
التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » (١)
ثم يقسم بعد ذلك موضوعه الى ستة فصول كبيرة هي :

الأول — في العمران البشرى على الجملة واصنافه وقسطه من
الأرض .

الثاني — في العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية .

الثالث — في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية

الرابع — في العمران الحضرى والبلدان والأمصار .

الخامس — في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس — في العلوم واكتسابها وتعلمها (٢) .

وهذا التقسيم الإجمالى يقدم لنا فكرة عما يرى ابن خلدون أنه
مادة لهذا العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى . وهو تقسيم
تبدو دقته وبراعته متى استعرضنا بعد ذلك مواد مقدمته كلها ،
ورأينا كيف ينبسط الموضوع ويتشعب الى أبعد الحدود ، وكيف
ينظم ابن خلدون حلقات بحثه فى سلسلة وثيقة الإتصال والتماسك ،
تشهد بتفوق هذا الذهن العبقري ، وطرافته ، وقوة تدليله وجدله .

(١) المقدمة — ص ٣٣ .

(٢) المقدمة — ص ٣٤ .

لسنا نحاول في هذه الرسالة أن نتناول فلسفة ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية بالتحليل والنقد^(١) ، فذلك مهمة لا يتسع لها هذا المقام الضيق . ولكننا نحاول فقط أن نستعرض محتويات مقدمته بإيجاز ، وأن نقف قليلا ببعض نظرياته الاجتماعية .

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالحديث عن قيمة التاريخ ومذاهبه وعما يرتكبه المؤرخون من الأخطاء في إيراد الأخبار والوقائع ، سواء بعامل الغرض والتحيز ، أو بعامل السهو والجهل بقوانين العمران وأحوال المجتمع ، وعدم الدقة والتمحيص في تقدير الممكن والمستحيل . ثم يمثل لذلك بعدة أمثلة يناقشها ويحاول أن يبين وجه الخطأ فيها . بيد أن هذه المناقشة لا تخلو أحيانا من الضعف أو الهوى . فأما الضعف فيبدو مثالا في أسباب دحضه لقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي ، وفي دفاعه عن خلال الرشيد ، ثم دفاعه عن خلال المأمون^(٢) . وأما الهوى فيبدو مثالا في حديثه عن نسب الخلفاء العبيديين (الفاطميين) ، ونسب الأدارسة بالمغرب الأقصى ، ومحاولته نقض المطاعن التي توجه الى نسبهما^(٣) . وقد رأينا أن حياة ابن خلدون كسياسي يتقلب

(١) يستطيع من يريد شرحا وافيا لمقدمة ابن خلدون ونظرياته الفلسفية والاجتماعية أن يرجع الى رسالة صديق الدكتور طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) التي نقلتها الى العربية .

(٢) المقدمة — ص ١٢ و ١٤ و ١٦ و ١٧ .

(٣) المقدمة — ص ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

في مختلف الدول والقصور تجعله يخضع أحيانا لمؤثرات الدعوة والهوى . على أن معظم حديثه في هذا الفصل طريف ممتع ، وكثير من مآخذه على أسلافه من الرواة والمؤرخين قوى صارم . وهو يتدرج من ذلك الى ضرورة تمحيص الوقائع والأخبار طبقا لهذا القانون الذي يتكون في رأيه بدرس العمران أو الاجتماع البشري على نحو ما قدمنا .

بعد هذا التمهيد النقدي المستفيض ، يتحدثنا ابن خلدون عن العلم الذي ابتكر موضوعه ، فيبدأ طبقا لتقسيمه الذي أتينا عليه ، بالحديث عن العمران أو الاجتماع البشري بصفة عامة ، ويشرح لنا طبيعة الاجتماع وضرورته وكيفية تنوعه بالنسبة للإقليم ، وتأثره بظروف الجو من الحر والبرد والاعتدال ، وأثر الهواء في أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم ؛ ويستعرض خلال ذلك جغرافية العالم كما كانت تعرف في عصره ، وهي جغرافية الأقاليم السبعة . ولأسنا نلمس في هذا الفصل كثيرا من الطرافة أو الجدة . وفي الفصل الثاني يتناول ابن خلدون أنواع العمران البدوي ، فيحدثنا بإفاضة عن المجتمع البدوي وخواصه ويقارنه بمجتمع الحضر . وهنا إحدى النظريات الاجتماعية المبتكرة التي يطالعنا بها المؤرخ ، فهو يتحدثنا هنا عما يسميه «العصبية» وهي عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه ، وقوامها في نظره الاتصال برابطة النسب والقربا وما اليهما من الروابط المماثلة . وهذه العصبية هي منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة في المجتمع البدوي ؛ وتكون هذه الرياسة لأهل العصبية ؛ ومدى الحسب الذي تترتب عليه العصبية فالرياسة ،

في نظره أربعة أجيال ، وقد يمتد الى خمسة أو ستة ولكن في حالة انحطاط وضعف . وتنهار العصبية ومن ثم الرياسة بانحلال الحسب . وتنقل الى عشيرة أو أسرة أخرى تجتمع لها أسباب الكثرة والقوة وهكذا . وغاية العصبية هي الملك ^(١) . وهنا يتحدث ابن خلدون عن خواص الملك واختلاف صورته ومداه باختلاف الأمم التي يقوم فيها ، وأثر الغلبة في الأمم المغلوبة وكونها مولعة دائماً بتقليد الغالب .

ثم يتحدث ابن خلدون عن العرب . وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل . فالعرب في نظره أمة وحشية ، تقوم فتوحهم على النهب والعيث ، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصغوبتها ، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب لأن طبائعهم من الرحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية للعمران ، ولأنهم أهل تخريب ونهب يخربون المباني وينهبون الأرزاق ، ويفسدون الأعمال والصنائع ، وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك ، لأنهم لبدائيتهم وخشونتهم أكثر شعورا بالاستقلال والحرية لا يدينون لرياسة أو نظام . وسياسة الملك تقتضي النظام والخضوع والانقياد ^(٢) . ويستمر ابن خلدون بعد ذلك في حملته على العرب في مواضع أخرى من مقدمته ، فيقول لنا إن الأبنية التي يخططها

(١) راجع شرح ابن خلدون لنظريته في العصبية ، وخواصها ، وتطورها

في المقدمة ص ١٠٨ — ١١٧ .

(٢) المقدمة ص ١٢٥ — ١٢٨

العرب يسرع اليها الخراب ، وإن العرب أبعد الناس عن الصنائع
وإنهم ليسوا أهلا للعلم ، وإن معظم حملة العلم في الدول الإسلامية
أكثرهم من الأعاجم^(١) . وإذا كان ابن خلدون يعتمد في هذه الحملة
على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة فإنه مع ذلك يبالغ
في حكمه على العرب ، وتعوزه الحجّة في كثير من آرائه . ولا يتسع
المقام هنا لمناقشته وتفنيده آرائه بإفاضة . ولكننا نقول فقط في شأن
الفتوحات العربية ، إن العرب هم الذين افتتحوا وهاد الشام
ومفاوز الأناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس ، واقتحموا
شمال إفريقيا حتى المغرب الأقصى ثم إسبانيا ، وعبروا جبال البرنيه
إلى فرنسا . وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التي
يسهل غزوها . وقد افتتحها العرب جميعا في أقل من قرن ،
وفي وابل من الظفر الباهر . ثم إن العرب لم يخبروا هذه الأقطار ،
ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولا ومجتمعات عامرة زاهرة ، ويكفي
لكي ندحض نظرية ابن خلدون في خواص الفتوح العربية أن
نستشهد بقيام الدولة الأموية في المشرق ، ثم قيام الدولة الإسلامية
في إسبانيا . وقد نفهم سر هذا التحامل الذي يطلق رأى ابن
خلدون في العرب بمثل هذه الشدة إذا ذكرنا أنه رغم انتسابه إلى
أصل عربي ينتمى في الواقع إلى ذلك الشعب البربري الذي افتتح
العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم ،
واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتفاض أن يندمج أخيرا
في الكتلة الإسلامية ، وأن يخضع راغما لرياسة العرب في إفريقية

واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه . والخصومة بين العرب والبربر في إفريقية واسبانيا شهيرة في التاريخ الاسلامي ، وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع في هذا المجتمع البربري يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ، ونعمت برعاية الموحدين البرابرة وتقلبت في نعمهم ، فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب .

بيد أنه يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ابن خلدون يحيش هنا بنزعة علمية وأخرى قومية ، فابن خلدون يحمل على العرب الذين ينتسب اليهم بمثل هذه الشدة ، ولكنه يحاول هنا أن يدعم قلمه بالأدلة والشواهد التاريخية ، ويطلع حديثه هنا نزعة علمية تحررت من أغلال التقاليد الموروثة . ثم هو يحيش هنا أيضا بعاطفة وطنية قوية ، فهو ينطق هنا بلسان ذلك الوطن البربري الذي غزاه العرب واثخنوا فيه مدى أحقاب وبسطوا عليهم سلطانهم الديني والسياسي ، ولبت عصورا يقاتل في سبيل حرياته واستقلاله .

وفي الفصل الثالث يحدثنا ابن خلدون عن الدولة والمُلك . فالدولة تحدث بالقبيل والعصبية على نحو ما تقدم ، وللدولة خواص معينة ، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها ، وللدعوة الدينية أثر في تقوية الدولة ولكن الدعوة الدينية لا تتم إلا بالعصبية أيضا . والخلاف يوهن الدولة ويدنى أجلها . وللملك كما للدولة طبائع وخواص ، منها الانفراد بالمجد ، والترف والدعة والسكون وهي خواص إذا استحكت ، فانها تحمل الدولة الى الهرم ثم الفناء . ثم

إن للدولة أعمار طبيعية كالأشخاص، ويقدر ابن خلدون عمر الدولة منذ نشأتها حتى الفتوة ثم الكهولة فالهرم والسقوط بثلاثة أجيال في الغالب، ويقدر الجيل بأربعين عاما، فعمر الدولة لا يعدو في الغالب مائة وعشرين سنة إلا في أحوال نادرة^(١) وهذه النظرية تتفق مع نظرية الحسب التي تقدمت عند ذكر العصبية. وهنا يبلغ ابن خلدون ذروة الابتكار والطرافة وتبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للاجتماع، في منتهى القوة والروعة. وفي رأينا أن هذا الفصل هو أبداع أقسام المقدمة وأمتنها في العرض والتدليل، وأسطعها في الدلالة على براعة هذا الذهن القوى الممتاز.

ويستمر ابن خلدون في موضوع الدولة والمُلك طويلا، فيتناول بعد ذلك تحول الدولة من البداوة الى الحضارة، وأطوارها المختلفة، وأثر الموالى والمصطنعين في هذا التطور. ثم يتناول الملك وأصنافه والإمامه والخلافة واختلاف الآراء في شأنهما، ومذاهب الشيعة؛ ثم عن تحول الخلافة الى الملك ورسوم الخلافة من بيعه وولاية عهد وغيرهما، وألقابها وخططها الدينية وهي القضاء والعدالة والسكة، ثم عن المُلك وخططه كالوزارة ودواوين الأعمال والحباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل؛ ورسوم الملك وشاراته المختلفة، والحروب ومذاهبها، والحباية والمكوس ونظم التجارة؛ وينحتم ابن خلدون هذا الفصل بالكلام عن الظلم، وكونه يؤدي الى انحلال الدولة وخراب العمران وحديثه هنا أيضا قوى مبتكر.

ويلحق بموضوع الدولة حديث البلدان والأمصار، ونشأة

المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها، من خصب ورفاهة
وجذب وفقر، وهو اختلاف يتعدى أثره إلى الأقطار التي تضم
هذه المدن، ثم موقف أهل البادية من المصر، وتوقف مدى
الحضارة في المصر على حالة الدولة، وكون الحضارة هي غاية العمران
ونهاية عمره، وأنها مؤذنة بفساده، وتفاوت الأمصار في الغلة
والصنائع واللغة، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من المقدمة.

وفي الفصل الخامس يتحدث ابن خلدون عن المعاش ووجوه
الرزق ووسائل اكتساب الثروة، ثم عن التجارة وما يتعلق بها
من العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها، ثم عن الصناعات
وأنواعها وأحوالها بصفة عامة، ثم يفرد لكل واحدة من أمهاتها
كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب فصلا خاصا.

وينخصص ابن خلدون الفصل السادس للكلام عن العلوم
والتعليم. والعلم من طبائع العمران، ويكثر ويزدهر حيث يعظم
العمران؛ ثم يتحدث عن أنواع العلوم الدينية والمدنية (الوضعية
والعقلية)؛ ويتخلل ذلك فصول طويلة شائقة عن الرؤيا والسحر
وأسرار الحروف والكيمياء والانفعال الروحاني والأسرار الخفية
والاستدلال على الضمائر، وهي جميعا عنده من أنواع العلوم أو مما
يلحق بها. ثم يحمل على الفلاسفة والمشتغلين بها باعتبارها علما باطلا،
وينوه بخطرها على الدين والعقيدة، ويناقش بعض الأصول
الفلسفية ويفندها. ويحدثنا بعد ذلك عن التربية ومذاهبها
وخواص العلماء وكون معظمهم في الإسلام من الأعاجم؛ وينحتم
بفصول عن علوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره.

الفصل الثاني

علم السياسة والملك قبل ابن خلدون

ابن خلدون مبتكر علم العمران . علم السياسة والملك قبل ابن خلدون . كتاب السلطان لابن قتيبة . نظريات الفارابي الاجتماعية . حديث إخوان الصفا عن السياسة وأقسامها . ماذا أفاد ابن خلدون من ذلك . تطور علم السياسة . الأحكام السلطانية وسياسة الملك لأبي الحسن الماوردي . سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي . حديث ابن خلدون عن كتاب الطرطوشي . رسالة الغزالي في السياسة الملكية . المنهج السلوكي . الآداب السلطانية لابن الطقطقي . موضوعه وروحه النقدي . ابتكار ابن خلدون وطرافته

هذه هي محتويات تلك المقدمة الشهيرة التي يعالج فيها ابن خلدون علمه الجديد « العمران » ويمهد بها لقراءة التاريخ وفهمه . وهذه المقدمة هي الكتاب الأول من تاريخه العام . ولكنها جاءت كما رأينا وحدة ضخمة مستقلة ، تمتاز بروعة ابتكارها ، وشاسع أفقها ، وطريف موضوعاتها ، وعمق مباحثها . وإذا كان هذا البحث الجديد الذي يعالجه ابن خلدون بمنتهى الإفاضة والبراعة والدقة يثير منا الإعجاب والدهشة ، فإنه يجلنا على التساؤل في الوقت نفسه ، ماذا كان نصيب ابن خلدون الحقيقي من ذلك الابتكار الرائع ؟ وهل كان له الفضل في ابتداع هذا العلم ، أم كان له فقط فضل التوسع والإفاضة في دراسة سبق أن عولجت من قبل ؟ يقول لنا ابن خلدون إن علمه بكر جديد وأنه ألهم إليه

الهام^(١)، بل هو لا يكاد يعرف ما هو ذلك العلم بالضبط ؛ فما نصيب هذه الدعوى من الصحة ؟ لقد حاولنا أن نستقصى مصادر ابن خلدون فيما خلفه المفكرون المسلمون قبله مما يمس موضوعه أو يقترب منه ، وأن نحقق بدرس هذه الآثار ما نقله الفيلسوف المؤرخ من أسلافه ، فانتبهنا بعد طول البحث الى أن ابن خلدون رجل موضوعه ، ومخترع علمه ، وصاحب الفضل الأول في ابتكار هذا العلم الجديد الذي يسميه « بالعمران أو الاجتماع البشرى » . نعم ان هنالك موضوعات مما يعالج ابن خلدون عولجت من قبل ، وهنالك مباحث تمس بعض موضوعات علمه ؛ ولكن هذه كما سنرى دراسات محدودة لبعض نواح ضيقة من ذلك العلم الشاسع الذي يعالجه ابن خلدون بمثل هذه الإفاضة في سلك متماسك منتظم الروابط والشواهد ، وكل ما خلفه أسلافه في ذلك لا يعدو لمحات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك لا تجمعها وحدة عامة ، ولا يمكن أن تصلح وحدها أساسا لمثل هذه الدراسة الاجتماعية الممتازة . وقد رأينا أن نستعرض هذه المباحث الأولى التي يشير ابن خلدون الى بعض منها ، حتى نرى بالمقارنة المادية الى أى حد يرتفع ذلك الذهن الفائق في أفق الطرافة والابتكار .

لسنا نجد قبل ابن خلدون مفكرا مسلما يجعل المجتمع وتكوينه وخواصه موضوعا لدرسه وتأمله ، ولكننا نجد بعض المفكرين المسلمين يعالجون منذ القرن الثالث الهجرى موضوع السياسة والملك كأنه علم خاص أو أدب خاص ؛ وقد فُهِمَت السياسة

في هذا العصر بمعنى ضيق جدا ، هو شرح الخلال التي يجب أن يتمتع بها السلطان ، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يحكم بأهلية وكفاية . وأما الملك فإنه يعالج من ناحية الشروط التي يجب توفرها شرعا في الإمام أو السلطان ، وما يخرجها عن أهلية الحكم ، ثم الخطط السلطانية كالوزارة والإمارة ومختلف الدواوين . وأقدم ما انتهى إلينا في هذا الموضوع ما كتبه ابن قتيبة الدينوري (١) في كتاب « عيون الأخبار » حيث يفرد قسما خاصا عنوانه « كتاب السلطان » يتحدث فيه عن الخلال التي يجب أن يتحلى بها السلطان ، وفي رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته وما يجب عليه نحو العمال والحكام (٢) . وعمدة ابن قتيبة في حديثه ، مجموعة من الأقوال والحكم الماثورة ، ومنها كثير مما ينسب لحكماء الفرس والهنود ، فحديثه أقرب إلى النصيح والموعظة منه إلى العرض والشرح . وفي أوائل القرن الرابع نجد فيلسوفا مسلما هو أبو نصر الفارابي (٣) يمس في مباحثه موضوع المجتمع والاجتماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث في كتابه « مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة » عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع والتعاون ، وعن نشأة القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة (السلطان) ، وما لا يناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بين أهل المدن الفاضلة والمدن الضالة ؛ ثم عن

(١) توفي ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م .

(٢) راجع هذا الفصل في كتاب عيون الأخبار (طبع دار الكتب) ج ١

ص ١ — ١٠٧ .

(٣) توفي الفارابي سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م .

الصناعات وأقسامها ^(١) كل ذلك بطريقة فلسفية موجزة جدا .
وظهرت في أواسط القرن الرابع «رسائل إخوان الصفا» الفلسفية ،
وفيها هنا وهناك لمحات وشذور عن بعض الموضوعات السياسية
والاجتماعية ؛ ويعتبر إخوان الصفا « السياسة » علما مستقلا
بذاته ويقسمونها الى خمسة أقسام : السياسة النبوية ، والملوكية ،
والعامة ، والخاصية ، والذاتية . والأولى تتعلق بوضع النواميس
والسنن الزكية وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآراء الخبيثة .
وأما السياسة الملوكية فهي « معرفة حفظ الشريعة على الأمة ،
 وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقامة
الحدود وإنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة ورد المظالم
وقمع الأعداء وكف الأشرار ونصرة الأخيار » . وأما السياسة
العامة وهي الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان
والمدن ورياسة قادة الجيوش على العساكر « فهي معرفة طبقات
المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم
وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم ... الخ » . وأما السياسة الخاصة
فهى معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته ؛ وأما
السياسة الذاتية فهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه ^(٢) .
ويتحدث إخوان الصفا في أمكنة أخرى عن الغرض من الملوك
وعن أنواع الرياسة ؛ وعن الإمامة وشروطها وأحكامها ^(٣)

(١) راجع كتاب المدينة الفاضلة (طبعة ليدن) ص ٥٣ و ٥٩ و ٦٧ .

(٢) رسائل إخوان الصفا (مصر) ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ .

(٣) رسائل إخوان الصفا — ج ١ ص ٢٣ و ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها وص ١٨١ .

ويتحدثون عن تقسيم العلوم ويقسمونها الى ثلاثة أقسام كبيرة
الرياضية ، والشرعية الوضعية ، والفلسفية الحقيقية ؛ ولكل قسم
منها أنواع وفروع كثيرة ، وتدخل الآداب بأنواعها في القسم
الأول ؛ وعلوم الدين والقرآن والسنة في القسم الثاني ؛ والمنطقيات
والطبيعات والالهيّات في الثالث . وتوضع السياسة في باب
« الالهيّات » ^(١) . كذلك يتحدث اخوان الصفا عن تقسيم
الصنائع وما تحتاج اليه من العناصر ^(٢) ، ويتحدثون عن « تأثير
طبيعة البلدان في الأخلاق » في فصل خاص ^(٣) . كل ذلك
في أسلوب علمي فلسفي رائع البيان والتدليل .

وهنا نقف قليلا . فإننا نجد فيما تناوله الفارابي واخوان الصفا
شيئا مما تناول ابن خلدون في مقدمته . مثال ذلك حديث الفارابي
عن حاجة الإنسان الى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ؛
وحديث اخوان الصفا عن تقسيم العلوم ، والصنائع ، ثم عن تأثير
طبيعة البلدان في الأخلاق . وقد تناول ابن خلدون هذه المسائل
كما بينا ^(٤) وجعلها من موضوعات علمه . ولكننا نجد بالمقارنة أن
ابن خلدون لا يكاد يشترك في هذه الموضوعات مع الفارابي واخوان

(١) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢١١

(٣) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

(٤) راجع المقدمة : في ضرورة الاجتماع الانساني (ص ٣٤) ، وفي قيام المدن

والأمصار (ص ٢٨٦ وما بعدها) وفي تقسيم العلوم (ص ٣٥٨ وما بعدها) ، وتقسيم

الصنائع (ص ٣١٨ وما بعدها) ؛ وفي تأثير الهواء في اخلاق البشر (ص ٧٢-٧٣) .

الصفاء بأكثر من رؤوسها ، وبينما يتناولها الفارابي واخوان الصفا بطريقة فلسفية علمية محضة إذا باين خلدون يتناولها من الناحية الاجتماعية ، ويفيض في عرضها بطريقة عملية محضة ويذهب في الشرح والتدليل مذهبا آخر ، فهو لا يخلو هنا أيضا من الاستقلال والطرافة والابتكار .

ثم نجد ذلك البحث الذي اصطلح على تسميته « بالسياسة » يتخذ مكانه وينتظم الى أدب خاص ، ويعالج تارة من الناحية الفقهية المحضة ، وتارة من الناحية الأخلاقية والفلسفية . ومن أشهر الكتب التي تعنى بجانبه الفقهي ، كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ، وهو من أشهر وأقيم الكتب في هذا الموضوع . وفيه يتحدث المؤلف بإفاضة عن الإمامة وشروطها ، والإمام وما يجب أن يتوفر فيه من الصفات ، وما يخرج به عن الإمامة ، وما يجب على الأمة نحوه ، ثم عن الوزارة وأنواعها والإمارة وأنواعها والقضاء وشروطه ، والفنى والغنيمية والحزبية والحراج وأحكامها ، والإقطاع ، والدواوين ، والحدود . كل ذلك من الناحية الفقهية وعلى المذهب الشافعي . وللماوردي أيضا رسالة أخرى عن « الوزارة وسياسة الملك » يتحدث فيها بإفاضة عن الوزارة وما يجب أن يتوفر في متوليها ، ثم عن الوزير واختصاصه وواجباته وحقوقه نحو السلطان ، وحقوق السلطان نحوه وأنواع الوزارات ، وعلائق الوزير والسلطان . وبحث الماوردي هنا أخلاقي فلسفي تتخلله الحكم والأقوال الماثورة . وفي كتاب « سراج الملوك » لأبي بكر الطرطوشي الأندلسي

المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) يتقدم البحث قليلا . ويعالج الطرطوشى موضوعه من الناحية الأخلاقية والفلسفية ، ويتناول بعض موضوعات لم يتناولها أسلافه فيحدثنا عن الخصال الواجبة في السلطان ، والصفات التى تؤدى الى ضياع الملك ، ثم عن خلال السلطان منفردة ، وعيوبه منفردة ، ويتكلم بعد ذلك عما يجب أن يتصف به السلطان نحو الجند والرعية ، وما يجب عليه نحو الأموال العامة وإنفاقها ، ثم عن الجزية وشروط العمال ، وعن الدواوين ، وعن الظلم وسوء عواقبه ، ثم عن الحروب وتديرها وأحكامها . وكتاب الطرطوشى هو أكبر مؤلف من نوعه ، ولكن الصبغة الدينية تغلب على أسلوبه ، ويتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، وتخلله الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة بكثرة . ويقول لنا الطرطوشى فى ديباجته « إن كتابه لم يسبق الى مثله أقلام العلماء » . على اننا نرى مما تقدم ان غير واحد من كتاب المشرق قد سبق الطرطوشى الى موضوعه ، وإن كان الطرطوشى يمتاز بالإفاضة وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

ويخص ابن خلدون كتاب الطرطوشى بالذكر بين الكتب التى تمس موضوعه لأنه يحدثنا عن تلك الكتب ، فيقول لنا إن فى كتاب السياسة المنسوب لأرسطو جزء صالح من موضوع علمه إلا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين . وكذا فى كلام ابن المقفع ، وما يستطرد فى رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنها ، وإنما يسلك فى ذكرها منحى الخطابة والترسل . ولكنه يصارحنا بأن الطرطوشى « قد

حوم في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله ... لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يوب الباب للسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ... وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده»^(١) . والواقع أن ابن خلدون يعالج بعض الموضوعات التي يعالجها الطرطوشي ، مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ، ولكنه ينحو في العرض والتدليل منحى آخر ، ولا نلمس في كتاب الطرطوشي أثر ذلك المذهب الإجتماعي المبتكر الذي يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه إلى منتهاه .

ولدينا رسالتان أخريان في هذا الموضوع ، أعنى موضوع السياسة الملكية هما « التبر المسبوك في نصائح الملوك » المنسوب للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م) وضعه بالفارسية للسلطان محمد بن ملك شاه ، وهو مجموعة نصائح في الخلال التي يجب أن يتحلى بها السلطان ، ومعظمه مواعظ وقصص قديمة^(٢) ، « والمنهج المسبوك في سياسة الملوك » ، كتبه عبد الرحمن ابن عبد الله للسلطان صلاح الدين الأيوبي (أواخر القرن السادس) في نفس الموضوع ، أعنى الخلال السلطانية ، وفيه أيضا حديث فقهى عن القتال والفيء والغنيمة ، ومواعظ وقصص قديمة مكررة .

بقي لدينا من هذا الثبت مؤلف يمتاز بشيء من التوسع في فهم

(١) المقدمة ص ٣٣

(٢) طبعت هذه الرسالة على هامش كتاب « سراج الملوك » (مصر) .

الموضوع وشيء من الطرافة في عرضه ، ذلك هو كتاب «الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لمؤلفه محمد بن علي بن طباطبا المعروف بالطَّقْطَقِي ، الذي عاش ، كما يستنتج من إشارات في كتابه ، في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري بعد زهاب الدولة العباسية ، وكتب مؤلفه في أواخر سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) بمدينة الموصل لأمرها عيسى بن إبراهيم^(١) ، ويخصص ابن الطَّقْطَقِي في كتابه فصلا كبيرا «للأُمُور السلطانية والسياسات الملكية»^(٢) غير أنه يعرض موضوعه في صورة أخرى ، ويقول لنا في مقدمته إنه لا يقصد البحث في أصل الملك وحقيقته وانقسامه الى ریاسات دينية ودنياوية من خلافة وسلطنة وإمارة وولاية ، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ، ومذاهب أصحاب الآراء في الإمامة ، وإنما يقصد البحث في موضوع «السياسات والآداب التي ينتفع بها في الحوادث الواقعة ، والوقائع الحادثة ، وفي سياسة الرعية وتحسين المملكة وفي إصلاح الإخلاق والسياسة»^(٣) . ويتحدث ابن الطَّقْطَقِي في هذا الفصل عما يجب أن يكون عليه الملك الفاضل من الخصال وما لا يجب ، ثم عن حقوق الملك على الرعية ، وأخصها الطاعة . ويحدثنا طويلا عن مزايا الطاعة وخواصها في الدولتين الأموية والعباسية ، وكيف

(١) راجع مقدمة المؤلف في طبعة «جريشزولد» التي نشرها المستشرق آلفارت

سنة ١٨٥٨ ؛ وراجع أيضا مقدمة الناشر الألمانية (ص ١٤ و ١٥) .

(٢) الفخرى — ص ١٩ — ٨٨

(٣) الفخرى — ص ١٩

كان فقدتها عاملا من أهم العوامل في وهن الدولة العباسية وسقوطها ،
ويشرح نظريته بالوقائع والحقائق التاريخية^(١) . ثم يتحدث عن
الحقوق الواجبة للريعية على المملك وأنواع السياسات التي يجب أن
يتبعها نحو مختلف الطبقات ، والنظر في العقوبات وتقديرها
وظروفها ، وخطر الانغماس في الشهوات على الملك والدولة ، ويورد
خلال ذلك شيئا من وصايا الحكماء اليونان والفرس . ولكن
ابن الطقطقي لا يعنى بعرض المبادئ والقواعد النظرية عنايته
بتطبيقها على حوادث التاريخ ولا سيما تاريخ الدول الإسلامية .
وهو يمتاز في عرضها وتطبيقها بنزعة نقدية قوية قلما نلمسها
في آثار أسلافه ، كما أنه يمتاز بحسن التدليل وتطبيق النظريات على
الوقائع . بل نستطيع أن نقول إن هذا الفصل الذي يمهده
لتاريخ الدول الإسلامية كان فتحا جديدا في النقد التاريخي ،
وفي درس الدولة من الناحية الاجتماعية . وهو بلا ريب مما يدخل
في مواد تلك الدراسة الاجتماعية الشاسعة التي استخرج منها
ابن خلدون علمه ومذهبه الاجتماعي . بيد أن ابن خلدون لم يطلع
فيما يظهر على هذا الأثر الذي يعالج بعض نواح من موضوعه ،
فقد كان الكتاب حديثا بالنسبة لعصره ، ولم يكن قد وصل تداوله
وذيوعه من المشرق الى المغرب ، هذا الى أن الموضوع الذي
يعالجه ابن الطقطقي ضيق جدا بالنسبة لدراسة ابن خلدون ، وإذا
كان كلاهما يشترك في فهم التاريخ بطريقة تحليلية ، فإن ابن خلدون
يتفوق على سلفه تفوقا عظيما بسعة آفاقه ، وينهج في دراسته سبيلا

أخرى تحتفظ بكل جدتها وطاقاتها .

* * *

والآن وقد عرضنا كل ما كتبه المفكرون المسلمون في موضوع الدولة والسياسة الملوكية والمدنية والاجتماعية قبل عصر ابن خلدون ، وبيننا بالمقارنة المادية أن هذا التراث كله لم يكن ليمد ابن خلدون أو يلهمه بموضوع علمه ، وإن كان يعرض الى نواح ضئيلة مما يتناوله ابن خلدون في دراسته ، فإننا نستطيع أن نقرر مع ابن خلدون أن ذلك العلم الذي يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى هو علم لم يوجد قبله في التفكير الاسلامى ، بل لم يوجد في التفكير القديم كله ، اذا استثنينا بعض ما خلفه الفلاسفة اليونان ولا سيما أرسطو عن نظم الدولة والمجتمع . فاذا كان ابن خلدون قد انتفع بشيء من تراث الماضى ، فانما يكون من هذا التراث الغابر ، ولا سيما تراث أرسطو ، وقد كان ابن خلدون فيما يظهر مطالعا على بعض جوانب من فلسفة أرسطو ، كما يبدو من إشارته الى « سياسة » أرسطو ، وعلى شروح ابن رشد لأرسطو^(١) . على أنه لا ريب في أن هذا الانتفاع لم يكن ذا شأن يذكّر سواء في صوغ فلسفته التاريخية أو فلسفته الاجتماعية .

فابن خلدون اذاً ، كما قدمنا أستاذ موضوعه ، ومخترع علمه . وهو يقول لنا بحق إن علمه جديد مبتكر ، وأنه ليس من علم السياسة المدنية الذى تناوله أسلافه من قبل ، بل هو علم مستنبط النشأة

(١) راجع المقدمة — ص ٣٣ . وقد وضع ابن خلدون كما سنرى ملخصات

لبعض كتب ابن رشد ، ولكنها لم تصل إلينا .

مستقل بذاته ، لم يعالجه مفكر قبله ، أو لم يعالجه بمثل ابتكاره وسعته
واسـتيعابه .

وسنرى أن هذا العلم الذى استحدثه ابن خلدون واستنبطه ،
يتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانه بين علومنا الحديثة ، فى علوم
الإجتماع ، وفلسفة التاريخ ، والنظام ، والاقتصاد السياسى .
وسنبين فى موضع آخر ، كيف يرتفع النقد الحديث بتراث ابن
خلدون الإجتماعى الى أسـمى مكانة ، ويعتبره مبتكر علم الإجتماع
الحديث وواضع أسـسه .

الفصل الثالث

كتاب العبر والتعريف

مؤلف ابن خلدون التاريخي . فكرته الأصلية في الاقتصار على تاريخ المغرب .
تنقيحه لتاريخه وز يادته في محتوياته . مدحه لخلال البربر . طريقتة وأسلوبه .
تاب التعريف أو ترجمة ابن خلدون لنفسه . محتويات التعريف . صراحة
ابن خلدون في الكشف عن كثير من نزعاته . خلاله القسوية . الجانب القصصي
في تعريفه . هل لابن خلدون آثار أخرى

— ١ —

ان هذا الكتاب الأول ، الذي يعرض فيه ابن خلدون نظرياته
في التاريخ والاجتماع ، والذي يشغل وحده مجلدا كبيرا ، ليس إلا
مقدمة لمؤلفه التاريخي الضخم أو تاريخه العام .

ويسمى ابن خلدون مؤلفه التاريخي : « كتاب العبر ، وديوان
المبتدا والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من
ذوى السلطان الأكبر » ويقسمه الى ثلاثة كتب كبيرة على
النحو الآتي :

الأول — في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض
الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم
وما لذلك من العلل والأسباب . وهذا الكتاب هو الذي عرضنا
اليه فيما تقدم ، وهو المعروف بالمقدمة .

الثانى — فى أخبار العرب وأجياهم ودولهم منذ مبدأ الخليفة الى هذا العهد وفيه الإلماع ببعض من عاصروهم من الأمم والمشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والإفرنجية .

الثالث — فى أخبار البربر ومن اليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجياهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .
ويقع مؤلف ابن خلدون فى سبعة مجلدات ضخمة ؛ الأول يشمل الكتاب الأول ، وهو علم العمران ؛ أو المقدمة ؛ وتبدأ الموسوعة التاريخية منذ المجلد الثانى . ويستغرق الكتاب الثانى وهو أخبار العرب وأجياهم ، وأخبار باقى الأمم القديمة والتركية والفرنجية حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أربعة مجلدات ، من الثانى الى الخامس ؛ ويشمل الكتاب الثالث ، وهو أخبار البربر حتى عصر المؤلف المجلدين السادس والسابع ؛ ويختتم ابن خلدون مؤلفه بالتعريف عن نفسه فى عدة فصول كبيرة كما نفصل بعد .

ويبدأ ابن خلدون كمعظم المؤرخين المسلمين بالحديث عن أصل الخليفة وأنساب الأمم المختلفة . وحديثه فى ذلك معاد جله من الروايات والأساطير الدينية القديمة التى ترددها التواريخ الإسلامية نقلا عن التوراة وعن هيرودتوس (هرشيوش) بيد أنه يبدى ريبه فى صحة الكثير منها . ويشرح لنا ابن خلدون بعد ذلك برنامج تاريخه كاملا^(١) ؛ ويبدأ بالكلام عن العرب الجاهلية ،

(١) كتاب العبر — ج ٢ ص ١٦ و ١٧ .

ثم اليهود واليونان والرومان والفرس . وينقل معظم روايته عن
اليونان والرومان عن ابن العميد .

ويشغل حديثه عن ظهور الإسلام وحياة النبي وعصر الخلفاء
الراشدين جزءا خاصا ألحقه بالمجلد الثاني . ثم يبدأ تاريخ الدول
الإسلامية منذ المجلد الثالث ، فيتحدث عن الدولة الأموية ،
ثم الدولة العباسية بإفاضة . ويشغل تاريخ الدولتين المجلد الثالث .
ويشمل المجلد الرابع تاريخ الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس
منذ الفتح حتى مبدأ دولة بني الأحمر ، وتاريخ بني بويه وبني
سبكتكين . ويشمل المجلد الخامس تاريخ الترك السلاجقة بإفاضة
ثم تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ دول المماليك في مصر حتى
أواخر القرن الثامن . ويعتمد ابن خلدون في هذا القسم أعني تاريخ
العرب والدول الإسلامية على تراث أسلافه مثل ابن هشام والواقدي
والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي وابن الأثير
وغيرهم . ويبدأ ابن خلدون كتابه الثالث وهو أخبار البربر في المجلد
السادس . ويذكر لنا ابن خلدون أن كتابة تاريخ البربر هي غرضه
الأول من وضع مؤلفه التاريخي ، إذ يقول في مقدمته : « وأنا
ذاكر في كتابي هذا ما أمكنتني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا
أو مندرجا في أخباره وتلويحا ، لاختصاص قصدي في التأليف
بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من
من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار
المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه » (١) . ولهذا التصريح من

جانب ابن خلدون قيمة خاصة ، فقد حمل بعض النقدة على تاريخه ، ورموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق فيما كتب عن المشرق . وقد أشرنا فيما تقدم الى أقوال الحافظ ابن حجر وغيره في ذلك ^(١) . والواقع ان القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر ، هو — بعد المقدمة — أنفس أقسامه ، وأوفرها طرافة ، وأقواها عرضا وتحقيقا ، وفيه من الروايات والحقائق الغربية عن أحوال تلك الأمم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه أى مؤرخ قبل ابن خلدون أو بعده . ولا غرو فان خلدون بطبيعة نشأته وحياته ، وتقلبه في خدمة الدول والقصور البربرية ، ودرسه لأحوالها دراسة المطلع ، رجل هذا الموضوع وأقدر من يتناوله .

وفي هذا الكتاب الثالث يبدأ ابن خلدون حديثه عن « العرب المستعربة من بقية الدول الاسلامية من العرب » بالمغرب ، ثم تاريخ البربر والقبائل والبطون البربرية الشهيرة مثل زناته ومغراوة ولواته ومصمودة والبرانس وكامة وصنهاجة منذ أقدم العصور حتى عصره ؛ ويقدم اليها عن أصول البربر ، وأحوالهم ، وعقائدهم قبل الفتح الاسلامي ، روايات وحقائق لم تكن معروفة من قبل . ويسرد تاريخ المرابطين والموحدين بإيجاز ؛ ثم يفيض في تاريخ الدول البربرية القريبة من عصره والتي عاصرها إفاضة ظاهرة ؛ ولما كان ابن خلدون قد اتصل بمعظم هذه الدول المعاصرة ، وأدى في تقلباتها ، أدوارا ، فانه يشير في كثير من المواطن الى مواقفه

(١) راجع ص ٩٣ من هذا الكتاب .

وأعماله فيها^(١) . ويشغل تاريخ البربر المجلد السادس ومعظم المجلد السابع من كتاب العبر كما انتهى إلينا . بيد أنه يتضح من مراجعة أخبار الدول المعاصرة، أن ابن خلدون، قد راجع ما كتبه في شأنها وزاد عليه فيما بعد في كثير من المواطن . ونحن نعرف أن ابن خلدون قد أتم كتابة النسخة الأولى من تاريخه في تونس سنة ٧٨٣ هـ قبل نزوحه الى مصر . وهو يقول لنا خلال حديثه عن أخبار بني حفص ما يأتي : « كنت قد أنهيت بتأليف الكتاب الى ارتجاع توزر من أيدي ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس ، ثم ركبت البحر في منتصف أربع وثمانين الى بلاد المشرق لقضاء الفرض ، ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ، ثم صارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين ... »^(٢) وقد وقع ارتجاع توزر سنة ٧٨٣ هـ^(٣) . وفي مصر تناول ابن خلدون تاريخه بالتهذيب والإضافة ، ووصل في روايته في أخبار الدول البربرية الى سني ٧٩٠ و ٧٩١ و ٧٩٢ وأحيانا الى سنة ٧٩٦ هـ^(٤) . ووصل في أخبار الدول المصرية والتركية حتى سني ٧٩٣ و ٧٩٥ و ٧٩٦ و ٧٩٧ هـ^(٥) . ووصل في أخبار الأندلس حتى سنة ٧٩٤ هـ^(٦) .

(١) مثال ذلك ما ورد في ص ٣٧٧ و ٣٧٩ من المجلد السادس وفي ص ١٣٣ و ١٤٣ و ٣٠٥ و ٣٢٩ و ٣٣٤ و ٣٧٧ من المجلد السابع .

(٢) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٦

(٣) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٥

(٤) راجع ج ٦ ص ٣٩٩ و ٤٠٣ و ٤٢٤ — وج ٧ ص ١٤٥ و ١٤٦

١٤٧ و ٢١٨ و ٢١٩

(٥) راجع ج ٥ ص ٥٤٠ — ٥٥٠ و ص ٥٦١ و ٥٦٣

(٦) راجع ج ٤ ص ١٧٩

وهذه كلها إضافات وفصول جديدة أضيفت الى المؤلف الأصلي أثناء إقامة المؤرخ بمصر؛ والنسخة التي انتهت اليها، والتي نتداولها الآن، هي بلا ريب من أتم النسخ وأوفاهها .

ونلاحظ في هذا القسم أيضا — تاريخ البربر — أن ابن خلدون يفرد فصلا خاصا للتكلم عن خلال البربر « وعمما كان لهم قديما وحديثا من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » وهو يقول لنا بحماسة « وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومراعاة المدح والثناء من الخلق، من عز الجوار وحماية التزيل ورعى الأذمة والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارة والثبات في الشدائد ... وإبائة الضيم ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم »^(١) ولم يعتقد ابن خلدون مثل هذا الفصل للتحديث عن خلال أية أمة من الأمم الأخرى، فهو هنا ينم عن هوى خاص ونعرة بربرية واضحة؛ وفي ذلك أيضا ما يفسر لنا صرامته في الحملة العرب غزاة إفريقية والمتغلبين عليها .

على أنه توجد أقسام أخرى من مؤلف ابن خلدون غير تاريخ البربر تمتاز بقيمة خاصة . مثال ذلك روايته عن دولة الإسلام في صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس، والممالك النصرانية في اسبانيا،

(١) راجع ج ٦ ص ١٠٣ وما بعدها .

وتاريخ دولة بني الأحمر في غرناطة . وينوه العلامة دوزي بقيمة رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى في اسبانيا ويقول إنه لا يوجد في الآداب النصرانية في العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها، وإن مؤرخا نصرانيا لم يوفق لكتابة رواية في مثل وضوحها ودقتها عن أية دولة مسلمة «^(١) ويتفوق ابن خلدون في هذه الأقسام من تاريخه على المؤرخين المسلمين تفوقا عظيما من حيث الدقة والتحقيق وتمحيص الرواية، ويرجع ذلك في الغالب إلى أنه اطلع على مصادر في عصره لم تصل إلينا . وقد اهتم البحث الحديث برواية ابن خلدون عن تاريخ البربر اهتماما عظيما كما اهتم بمعظم هذه الأقسام الأخرى من تاريخه، فترجمت جميعا إلى اللغات الأوروبية كما سنبين بعد .

ويختتم ابن خلدون كتابه بعدة فصول كتبها في التعريف بنفسه وسرد تاريخ حياته منذ نشأته حتى نزوحه إلى مصر، وما توالى عليه بها من الحوادث حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ . وتعرف هذه الفصول « بالتعريف » أو التعريف بابن خلدون، وسنعود إليها فيما بعد .



وقد نهج ابن خلدون في تنظيم مؤلفه منهجا جديدا، فقسمه إلى كتب، ثم إلى فصول متصلة متداخلة، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى النهاية مع مراعاة نقط الوصل والتدخل

Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature (١)

d'Espagne au moyen âge, p. 96.

بين مختلف الدول . وهو من هذه الناحية يتفوق على أسلافه تفوقا كبيرا . وقد وضعت معظم الموسوعات التاريخية الإسلامية قبل عصره في صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين ، وجمعت حوادث كل سنة رغم تباعدها وتباينها معا . ولكن ابن خلدون عدل عن هذه الطريقة الى طريقة الفصول والدول المتصلة ، وهي أقرب الى الدقة وحسن الرواية والتنسيق . وهو ليس أول من ابتدعها من المؤرخين المسلمين ، فقد سبقه اليها منذ القرنين الثالث والرابع مؤرخون كالواقدي ، والبلاذري ، وابن عبد الحكم المصري والمسعودي ، دونوا التاريخ فصولا متصلة ^(١) . ولكنه يمتاز عن أسلافه ببراعة التنظيم والربط والسبك ، ثم يمتاز عنهم أيضا بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

ولابن خلدون أسلوب خاص في العرض والتعبير . وكما أن مقدمته تمتاز بطرافة موضوعاتها فهي أيضا تمتاز بروعة أسلوبها الأدبي الذي يجمع بين البساطة وقوة التعبير ، ودقة التدليل ، وحسن الأداء والتناسق . وإذا كانت المقدمة مثلا أعلى للتفكير الناضج والابتكار الفائق ، فهي في نظرنا أيضا مثل أعلى لحسن البيان والفصاحة المرسلة والعرض الشائق ، وذلك رغم ما يطرأ أحيانا على أسلوبها من ضعف في العبارة ، وغرابة في التعبير ، وشذوذ في اللفظ ، ترجع إلى نشأة ابن خلدون البربرية ، وثقافته بأداب

(١) الواقدي في كتاب « فتوح مصر والشام » المنسوب اليه ، والبلاذري في « فتوح البلدان » وابن عبد الحكم في « فتوح مصر وأخبارها » والمسعودي في « مروج الذهب » .

المغرب والأندلس ، ولم تكن يومئذ في أوج قوتها .
ويكتب ابن خلدون تاريخه بنفس الأسلوب القوي المرسل ؛
وفي أحيان كثيرة يرتفع إلى ذروة القوة في التعبير ، ولكنه في أحيان
كثيرة يبالغ في الإيجاز والإتباع ، فتبدو عبارته قاصرة عن بيان
مقاصده ويعتورها الغموض واللبس ، أو يعتورها نوع من الركاكة
والضعف ، وتخللها الألفاظ الغريبة . غير أنه دائماً أستاذ
موضوعه ، يمتاز دائماً بالبيان القوي الشائق .

— ٢ —

ترك ابن خلدون سيرة حياته مكتوبة بقلمه . وليس ابن خلدون
أول من ترجم نفسه من الكتاب والمفكرين المسلمين . فكثير منهم
ترجم نفسه ولا سيما المحدثين . ومن الأدباء والمؤرخين الذين
ترجموا أنفسهم ياقوت الحموي في كتابه « معجم الأدباء » ولسان
الدين بن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه في كتابه « الإحاطة
في أخبار غرناطة » ومعاصره الحافظ ابن حجر في كتابه « رفع
الإصر عن قضاة مصر » والسيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » .
ولكن هؤلاء جميعاً يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة . أما
ابن خلدون فهو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة مستفيضة
تشغل كتاباً بأسره ، ويحدثنا بصراحة عن كثير من أعماله وأحواله
التي لا يحسن الحديث عنها . وابن خلدون يعتبر بحق نفسه شخصية
من شخصيات التاريخ تستحق سيرتها التدوين والترجمة ؛ فقد لبث
نحو ثلث قرن شخصية بارزة في الدول المغربية المعاصرة ، يؤثر
بأعماله ونفوذها في تطوراتها ومصايرها ، فتاريخه في الواقع قطعة من

تاريخ هذه الدول لا يمكن إغفالها .

كتب ابن خلدون إذا ترجمة نفسه في عدة فصول مستفيضة وجعلها ذيلاً لمؤلفه التاريخي . وتعرف هذه الفصول بالتعريف ، وهو العنوان الذي اختاره ابن خلدون لأول فصل منها وهو : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وتشغل من المجلد السابع من تاريخه نحو مائة صفحة من القطع الكبير^(١) . ويحدثنا ابن خلدون في « التعريف » عن نسبه وتاريخ أسرته مذ قدمت إلى الأندلس واستقرت في إشبيلية حتى نزوحها إلى المغرب وما ساهم به زعمائها في حوادث الأندلس ، وما انتهوا إليه من رفيع المناصب والنفوذ حتى أيام الطوائف . ثم يحدثنا عن نشأته وتربيته الأولى وما قرأ ودرس من الكتب والعلوم ، وعن شيوخه الذين تلقى عنهم ، ويترجم لنا كثيرا منهم . ثم يتناول سيرة حياته العامة ، مذولى توقيع العلامة لأبي اسحاق سلطان تونس سنة ٧٥٢ هـ ، ويحدثنا بإفاضة عن اتصاله بأمراء المغرب ودوله ، وتقلبه في قصور تونس وبجايه وتلمسان وفاس ، وعما انتهى إليه من النفوذ في هذه القصور والدول وهو فتي في عنفوانه لم يجاوز الثلاثين ، وعما أصابه مرارا من محن الإعتقال والتشريد ، ثم عن رحلته إلى الأندلس واتصاله بملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، وسفارته إلى ملك قشتاله وزيارته لإشبيلية موطن أسرته الأول ، وكيف نشب الجفاء بينه وبين ابن الخطيب وملك غرناطة ، فارتد إلى المغرب يتقلب في خدمة أمراءه ودوله حتى انتهى كرهة أخرى إلى بلاط تونس فاستقر فيه ، ثم لزم

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٧٩ — ٤٦٢ .

العزلة حينما وعكف على كتابة مؤلفه حتى أتمه ، ورأى أخيرا أن
يختتم حياة المغامرة السياسية في تلك القصور المضطربة فغادر تونس
إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ .

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عن حياته في مصر واتصاله
بالسلطان ، وولايته التدريس وقضاء المالكية ، وما كان من سعاية
خصومه في حقه حتى عزل عن منصب القضاء ، ثم سفره لقضاء
البحر وعوده إلى مصر ليتقطع للتدريس والقراءة ، وليرتد حينما إلى
حياة الدعة والعزلة حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

وهنا يختتم ابن خلدون فصول « التعريف » بنفسه في النسخة
المتداولة التي انتهت إلينا . ولكن دار الكتب المصرية تحتفظ
بنسخة مستقلة من « التعريف » أتم وأوفى عنوانها « التعريف
بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » وفي نهايتها أنها نقلت عن نسخة
المؤلف الأصلية ^(١) . وفي هذه النسخة عدة فصول أخرى عن
حياة ابن خلدون في مصر ، يحدثنا فيها بإفاضة عن ولايته
لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان
مصر وسلاطين المغرب ، وعن حوادث مصر الداخلية يومئذ ،
ثم سفره إلى الشام في ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه ملك التتار
تيمورلنك تحت أسوار دمشق ، وما دار بينهما من الأحاديث ،
وما وقع في تلك الفترة من حوادث الفتح التتري ، يتخلل ذلك كله
شروح وتعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث
السياسية على طريقته في المقدمة . ثم يحدثنا بعد ذلك عن عوده

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب تحت رقم (١٠٩ م تاريخ) .

الى مصر وعوده الى ولاية القضاء مرارا وتكرارا، وما لقي في ذلك من كيد خصومه وسعايتهم . ويصل ابن خلدون في رواية هذه الحوادث حتى ختام سنة ٨٠٧ هـ اعني قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط، وتشغل هذه الفصول في النسخة الخطية المشار اليها نحو أربعين صفحة كبيرة^(١). وتقع النسخة كلها في مائة وتسع وأربعين صفحة. وفي القسم الأول منها الذي يقابل نسخة التعريف المتداولة زيادات وإضافات كثيرة مما يدل على أن ابن خلدون عاد أثناء مقامه في مصر فتناول ترجمة حياته بشئ من التنقيح والتهذيب .

وهذا « التعريف » الذي يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته، قطعه فريدة في الأدب العربي؛ فهو صورة قوية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة، رسمت في كثير من الحرية والصراحة حتى انها لتفصح في كثير من المواطن عن خواص صاحبها النفسية، وليست هذه الخواص دائما مما يحمد أو مما تقرر الأخلاق الفاضلة . فهناك الكبرياء، والزهو، والأثرة، وهنالك الطمع وحب التقلب، وشغف الدس، وانتهاز الفرص بأي الوسائل؛ ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة؛ هذه كلها نلمحها من آن الى آخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه . ولكن

(١) تشغل هذه الفصول في النسخة الخطية من ص ١٠٧ الى ص ١٤٩ . وهذا بيانها كما أوردها ابن خلدون : ولاية الدروس والخوانق . ولاية خانقاه ببيرس والعزل منها . فتنة الناصري . السعاية في المهادة والإلحاق بين ملوك المغرب والملك الظاهر . سفر السلطان الى الشام لمداغة الظفر (التتار) عن بلاده . لقاء الأمير تمر (تيمور) سلطان المغل والظفر .

هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيرا عن خواص الشخصية الممتازة، بل هي في الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هي بعبارة أخرى مقومات السياسة «الميكافيلية» التي تتبوأ مكانها بين مذاهب السياسة الحديثة. ثم هي تقرون في الوقت نفسه بكثير من خواص العبقرية ومميزاتها، فهناك الى جانبها، نرى الجرأة والإقدام وقوة النفس والثبات والجلد، ونرى وفرة الذكاء والدهاء وبعد النظر، ونرى قوة التأثير والإقناع، ونرى الفصاحة والبيان الساحر، هذه الخلال البديعة كلها أيضا مما نستشف ونشهد في أعمال ابن خلدون ومواقفه. وفي هذا وذاك يحدثنا المؤرخ بصراحة وحرية وبساطة تحمل على الإعجاب.

ثم هنالك الجانب القصصى الشائق. وتلك الغمار الخطرة التي تتخلل حياة المؤرخ، ليست مما يقع في حياة الرجل العادى. فهو يجوز من قصر إلى قصر، ويجوز مخاطر النجمة والاعتقال والمطاردة، ويقضى حياته السياسية في توجس مستمر، ويسير في ركب الجند ويمثل الى جانب أميره في المعارك الحربية، ويقوم بقضاء المهام الخطرة في أعماق الهضاب والصحارى. ونراه في دمشق في السبعين من عمره يخوض مخاطر جديدة، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ويقصد الى معسكر الفاتح في جرة، ونراه في مصر يقارع خصومه ويغال بهم رغم انفراده وكثرتهم، ويفوز عليهم في ميدان النضال أكثر من مرة. أليست لهذه الحياة العنيفة الشائقة روعتها وسحرها؟ إنا لنذكر حين نقرأ «تعريف

ابن خلدون» تلك الترجمة الشهيرة التي تركها لنا بنقونوتو تسليني^(١) عن حياته الغربية . فهناك شبه عظيم بين السيرتين رغم اختلافهما في النوع ، وكتابهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الإفضاء والصراحة . وإذا كانت ترجمة الفنان الايطالى تعتبر في الأدب الغربى ، نموذجا بديعا للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فإن «تعريف» ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة فى أدبنا العربى .

— ٣ —

لم يصلنا من تراث ابن خلدون سوى مؤلفه التاريخى أعنى كتاب العبر، والتعريف . ولكن ابن الخطيب يذكر لنا فى ترجمته لابن خلدون فى كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» ثبنا آخر لآثار ابن خلدون ، فيقول لنا إنه «شرح البردة شرحا بديعا ، ولخص كثيرا من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييدا مفيدا فى المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازى . وألف كتابا فى الحساب ، وشرع فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشئ لا غاية فوقه فى الكمال»^(٢) وقد كتب ابن الخطيب هذه الترجمة قبل أن يضع ابن خلدون مؤلفه التاريخى بأعوام كثيرة ،

(١) بنقونوتو تسليني Cellini (١٥٠٠ — ١٥٧١) رسام وحفار وصانع ايطالى شهير خاض غمار حياة غريبة فياضة بالجرأة والمخاطرة ، وترك لنا ترجمة نفسه فى مجلد ضخم . وتعتبر ترجمته من ابدع آثار عصر الاحياء .

(٢) نفح الطيب (بولاق) ص ١٩٤ — وينقل المقرئ ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون كلها (ج ١٤ — ٢٦) .

ولذا لم يذكره في هذا الثبت . على أن شيئا من تلك الآثار
أو الرسائل لم يصلنا ، بل يظهر أنها لم تكن ذائعة معروفة فلم تذكر
التراجم المصرية المعاصرة عنها شيئا ، والظاهر أيضا أنها لم تكن من
الأهمية بمكان حتى أن ابن خلدون نفسه لا يشير إليها في التعريف
بشيء .

الفصل الرابع

ابن خلدون والنقد الحديث

أول عهد البحث الغربي بابن خلدون . المباحث الأولى عنه وعن مؤلفه . نشر المقدمة وترجمتها . ظهور نظرياته وآرائه . رسالة فون كيرمر عنه . ابن خلدون مؤرخ الحضارة الإسلامية . تعليق الأستاذ شيمت على هذا الوصف . رأى دى بوير . ابن خلدون الفيلسوف . ابن خلدون الاجتماعي . تحليل العلامة جملوكتش لنظريات ابن خلدون الاجتماعية . فريرو وليقين . تقدير الأستاذ مونيه للمقدمة . فلسفة ابن خلدون الوضعية . تشاوم ابن خلدون . رأى فون فيسندل في تطبيق نظرياته على التاريخ الحديث . ابن خلدون الاقتصادي . تحليل الأستاذ كلوزيو لنظرياته الاقتصادية . رسالة الأستاذ شيمت . تقديره لابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ واجتماعي .

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسنى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم إلى مكانته ، وعرف قبله كثيرا من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم أجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لأنهم ظهوروا في عصور الاسلام الفتية الزاهرة أو لأنهم تناولوا نواحي عنى بها التفكير الغربي^(١) . ولكن ابن خلدون ظهر في عصر

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودي وأبي الفدا وابن العبري وابن خلدون وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة ؛ وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبري وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيور) في انكلترا بنصهما العربي منذ منتصف القرن السابع عشر .

سرى فيه الإنحلال إلى صولة الإسلام وسيادته ، واضمحلال التفكير الإسلامي ، فلم يكن أجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبت تراث ابن خلدون مغمورا في الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئا عنه . وفي سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه في موسوعة « دربلو » الشرقية أول ترجمة غربية^(١) . وهى ترجمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك أكثر من قرن قبل أن يعنى التفكير الغربى بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسى سلقستردى ساسى سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة فى قاموسه Chrestomathie Arabe . ثم نشر بعد ذلك بأعوام ترجمة لمقتطفات أخرى من المقدمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة أوفى لابن خلدون فى قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدمة ابن خلدون . وفى نفس الوقت نشر المستشرق النمساوى فون هامار رسالة بالألمانية عن « اضمحلال الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة »^(٢) ، تعرض فيها لبعض نظريات ابن خلدون فى انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتسكيو العرب » . ونشر بعد ذلك ترجمة ألمانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفا لبعض أجزاء المقدمة فى « المجلة الآسيوية »^(٣) . واستمر دى ساسى

(١) D'Herbélot : Bibliothèque Orientale.

(٢) Von Hammer - Purgstall : Ueber den Verfall des Islams nach den ersten drey Jahrhunderten der Hidschrat (1812).

(٣) Journal Asiatique (1822).

وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدمة ابن خلدون أو تاريخه، والبحث الغربى فيما بين ذلك يزداد اهتماما بابن خلدون وتراثه، وإعجابا بقوة تفكيره وطرافته، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خلدون كاملة بنصها العربى سنة ١٨٥٨، ونشر دى سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدمة، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربى فى روعة ابتكاره، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذى غمره النسيان مدى عصور.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربى بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة. كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافا علميا حقا، وكان أعجب ما فى هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب فى تراث المفكر المسلم، بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربى إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة. أجل اكتشاف النقد الغربى لدهشته وإعجابه فى تراث ابن خلدون كثيرا مما رده ميكافيللى بعده بقرن، وما رده فيكو ومونتسكيو، وأدم سميث، وأوجست كونت^(١) بعده بقرون. وكان المعتقد أن البحث الغربى أول من اهتدى الى فلسفة التاريخ، ومبادئ الاجتماع، وأصول الاقتصاد

(١) ميكافيللى مؤرخ وسياسى إيطالى (١٤٦٩ — ١٥٢٧). وفيكو مؤرخ وفيلسوف إيطالى (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشرع وفيلسوف واجتماعى فرنسى (١٦٦٩ — ١٧٥٥) وأدم سميث اقتصادى انكليزى (١٧٢٣ — ١٧٩٠) وأوجست كونت فيلسوف فرنسى وهو واضع أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧).

السياسي ، فإذا بابن خلدون يسبقه بعصور و يغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيرا من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة . ومن ثم فإننا نرى النقد الغربي ، بعد أن اكتشفه ودرسه ، يرتفع بترائه إلى أسمى مكانة ، وينظمه في سلك الفلاسفة ومؤرخي الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي ، بل ويعترف له بفضل السبق في هذه الميادين .

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية في تفكير ابن خلدون أول ما عني النقد الغربي بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت أن لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع ، وأخذت تتفوق على ماعداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغا كبيرا في النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن .

وكان في مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمساوي الكبير البارون فون كريم ، فكتب عنه بالألمانية رسالته الشهيرة « ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية » ^(١) وقدمها لأكاديمية العلوم بثينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريم ابن خلدون مؤرخا للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الإسلامية ، لأنه

(١) Von Kremer : Ibn Chaldûm und seine Kultur-

Geschichte der islamischen Reiche.

من بين المؤرخين المسلمين أول من خصص فصولا إضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم ، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والإدارة وتطورها في الدول الإسلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب المعاش ؛ ثم عن العلوم والفنون والآداب وأصنافها وأحوالها وتطورها في العالم الإسلامي وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لأن ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أولذاتها وإنما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

ولم يلق هذا الوصف الذي أسبغهُ فون كيرمر على ابن خلدون تأييدا كبيرا من النقدة . ويقول الأستاذ شميت وهو أحدث من درس ابن خلدون ونقده ، في التعليق على هذا الرأي ما يأتي :

« اذا وجب مع بعض التحفظ أن نعتبر ابن خلدون مؤرخا للحضارة ، فيحسن أن نتدبر ما اذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيقي سواء في هذا القسم من مؤلفه أو في تاريخه السياسي هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهه ، لا أن يقدم لنا تطبيقا كاملا للقواعد التي قررهما . ذلك أنه في القصول الأولى من مقدمته يعالج المسائل التي يختلج بها ذهنه ، بمنتهى الإفاضة ، كأصول النقد التاريخي والقواعد الأساسية التي يجب أن يستند إليها البحث التاريخي ؛ ويعالج بالأخص فكرته في فهم التاريخ ومداه وعواملها ونتائجها المنظمة أو قوانينها . ولقد

كانت هذه الفكرة العظيمة المستنيرة في فهم التاريخ بأنه سجل لتطور الانسان الاجتماعى ، مترتبا على العوامل الطبيعية وناشئا عن تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليفة بأن تجعل كتابه « مفتاح عهد جديد » لو لم تكن الحضارة التى وصفها صائرة الى الانحلال العاجل ، واللغة التى كتب بها مجهولة من الأمم الفتية التى قدر لها أن تمضى بالمهمة ، بحيث غدا استمرار التقدم العلمى مستحيلا واضطر بناء الحضارة الجدد أن يشقوا طريقهم ببطء دون المعاونة التى كان بوسعه أن يقدمها ، الى بعض المراتب السامية التى تبوأها هو من قبل « (١) .

ويعتبر دى بوير (الهولندى) ابن خلدون فيلسوفا ، ويضعه فى ثبث الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن الطفيل ، وينوه بقيمة المنطق فى صوغ نظرياته ، ويصفه بأنه مفكر متزن ، فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيرا ما يعارض مبادئ الفلسفة العقلية ، بمبادئ الاسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصى أو لاعتبار سياسى . بيد أن الدين لم يؤثر فى آرائه العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطالية الأفلاطونية . وقد أثرت فى تكوين ذهنيته جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ، وكذلك المؤلفات التاريخية لأسلافه المشاركة ولا سيما المسعودى ، أيما تأثير . وقد حاول ابن خلدون أن يؤسس نظاما فلسفيا جديدا لم يحل بذهن أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ نظاما فلسفيا ، وهو

(١) N. Schmidt : Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher (New-York 1930) p. 15-16.

يقول لنا إن هذا النظام إنما هو الحياة الاجتماعية، ومادة المجتمع كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصلون أقواتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضا ، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يلهمون أخيرا في ظل حياة الحضرة رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دى بوير إن ابن خلدون هو بلا ريب أول من حاول أن يشرح بإفاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة ، وأن يعرض ظروف الجنس والإقليم ووسائل الإنتاج وما إليها ، وأثرها في تكوين ذهن الإنسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقا داخليا منظما . وينتتم دى بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتي : « لقد سار أمل ابن خلدون في أن يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الإسلام ، فبكما أنه كان دون سلف ، فكذلك بقى دون خلف » (١) .

— ٢ —

بيد أن النقد الغربى كان أكثر اهتماما بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية . وقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الإعجاب والتقدير ، وعنى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات أقطاب الاجتماع المحدثين .

T. J. de Boer : Geschichte der Philosophie im (١)

Islam (1901). pp. 177-184.

ومن هؤلاء النقدة العلامة الإجتماعى لدثيج جمبلوكتش ، فهو
يخصص لابن خلدون فى مباحثه الإجتماعية فصلا كبيرا ، ويصفه
بأنه إجتماعى أو من علماء الاجتماع ، ويتناول طائفة من آرائه
الإجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين أنه قد سبق فى كثير من هذه
الآراء أقطاب الاجتماع المحدثين . فهو مثلا قد اهتم الى نظرية
الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها
أوتو كار لورنتس فى أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوكتش
إن ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الإجتماعى حينما يعرض
ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الإجتماعية ، وكيف أن هذه الجماعات
نفسها إنما هى ثمرة الوسط . وآرائه فى هذا المقام عن الأجناس
الغالبة فى منتهى الأهمية . وفى أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل
على أنه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين (١)
بخمسة قرون ، وفيما يقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان فى الخضوع
للقوانين الإجتماعية العامة ما يدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة »
قبل أن يعرفه هيكل (٢) . ومن المدهش أن نرى كم تتفق الاجراءات
التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيدوا
سلطانهم ، مع النظم الحربية التي أثبت البحث التاريخى الحديث أن
مؤسسى الدول الأوربية فى العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل إن

(١) داروين Darwin علامة طبيعى انجلىزى اشتهر بمباحثه عن أصول
الانسان والأنواع ، ومؤثرات الوسط (١٨٠٩ — ١٨٨٢) .

(٢) إرنست هيكل علامة بيولوجى وطبيعى المانى اشتهر مثل داروين بمباحثه
عن أصول الأنواع وله فيها نظريات جديدة (١٨٣٤ — ١٩١٩) .

فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكيا فيللى بعد ذلك بقرن الى الحكام فى كتابه «الأمير» . وحتى فى هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفى صبغتها الواقعية الخشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجا للايطالى البارع الذى لم يعرفه بلا ريب . هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطين الروحية والزمنية ، كما يقررهما أساتذة القانون السياسى والقانون الكنسى .

وأخيرا يقول جمبلوكتش : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل فيكو الذى أراد الايطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوربى ، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل منزن ، وأتى فى هذا الموضوع بأراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم : علم الاجتماع » ^(١) .

وفى نفس الوقت الذى أدلى فيه جمبلوكتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعى ايطالى هو فريرو فأيد وصف جمبلوكتش لابن خلدون بأنه «اجتماعى» ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه فى هذا الميدان ^(٢) . ويوافقهما فى ذلك الكاتب الاجتماعى الروسى ليثمين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفا «اجتماعيا» .
ودرس مسيومونيبه استاذنا السابق بكلية الحقوق ، ابن خلدون

L.Gumplowicz: Un Sociologue arabe au XIV^e siècle (١)
(dans Aperçus Sociologiques) pp. 201- 226.

A. Ferreiro : Un Sociologo arabo del secolo XIV (٢)
(La Riforma Sociale) 1896.

من الناحيتين الإقتصادية والاجتماعية في بحثين قويين ، يتناول
في أولها آراء ابن خلدون الإقتصادية^(١) وفي الثاني آراءه الاجتماعية ،
ويعتبره فيلسوفا واقتصاديا واجتماعيا معا . ويصف مقدمته
وتفكيره بما يأتي : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية ،
وموسوعة لعلوم العصر ، وتحتوى على أجزاء متفرقة لبحث كامل
في علم الاجتماع . وطريقتها بالأخص بدیعة تدلل على ذهن علمي
حق . واذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعي أعلى ،
فهى مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث ، وهى مرآة
الواقع . وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه
تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » . ثم يحلل
مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها الى قسمين
هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ؛
ويصفها بقوله : « واذا فإن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها
على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس إلا لحظة في مجرى
الأشياء الكونی ، وهو يفنى كما يفنى كل شئ . والحياة كالرّوى ،
وكل تغيير يقتضى عكسه ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط ... ولكن
تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وإنما
يشاهد . وهو بذلك يدل على ذهنية علمية حققة ، وبذا يجب أن
يفسح له مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي »^(٢) .

(١) René Maunier : Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue d'histoire économique et sociale, 1912).

(٢) Maunier: Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIV siècle (l'Egypte contemporaine 1917, p. 31°)

وينوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذي يطبع فلسفته .
ويقول لنا فون كريم إن ابن خلدون يذهب في تشاؤمه الى حدود
بعيدة ، ويقارنه في ذلك بأبي العلاء المعري . ويعتقد أن مصدر
هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الإسلامية في العصر
الذي كتب فيه ابن خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف
الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون ، وما بثت الى
نفسه من مرارة وخيبة أمل . على أن كثيرا من الناحية الواقعية
لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة ؛ ولم يكن تشاؤمه نزعة
شخصية كامنة في أخلاقه ، ولكنه صفة لتفكيره فقط ، ونتيجة
للبحث والدرس . أما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدل حوادث
حياته أكثر ميلا الى الثقة والابتهاج والتفاؤل .

ويدرس الكاتب الألماني فون فيسندنك نظريات ابن
خلدون في نشوء الدول وانحلالها ، ويرى فيه ذهنا وافر الابتكار ،
ومثلا أعلى في التفكير العربي وآخر نجم سطع في أفق التفكير
الإسلامي الحر . ويعتبره مثل فون كريم مؤرخا للحضارة
Kulturhistoriker ؛ ويرى فيه بحق إماما لمدرستي ميكافيللي
وفيكو ، ويحاول أن يطبق نظرياته في سقوط الدول والأسر على
الامبراطورية الألمانية والدول الأوربية فيقول : «وقديلوح للالمانى
في الوقت الحاضر أن هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من
ابتكار مفكر اجنبي ، فإن الامبراطورية الألمانية لم تعمّر طويلا
ثم ذوى غصنها غضبا الى عالم الفناء بسرعة خارقة ؛ فهل يجب أن
نبحث لتلك المأساة عن أسباب غير تلك التي أوردتها الكاتب

العربي عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ، يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيدا في المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ، ويُطبق ما كان يشعر به أو يدعو اليه على أوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتدوى ميول المفكر والسياسي الإفريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها ، دويا يتردد صدها في عالم أفكار عصرنا» (١) .

— ٣ —

درس الأستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية أخرى هي الناحية الإقتصادية . ويرى كلوزيو بادئ بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذي انحدر منه ، والبلد الذي ولد فيه ، والحضارة التي ينتمى اليها ، يمكن أن يوضع في صف عظماء الرجال الذين يتبوأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقا جديدة في ميدان العلوم الاجتماعية . ولكنه لا يجارى ميكا فيللي كمؤرخ ، لأنه لم يعرف أو لم يرد أن يطبق المبادئ التي عرضها في مقدمته لشرح أسباب الحوادث التي يقصها في تاريخه . ومع ذلك فقد سبق ميكا فيللي ومونتسكيو وفيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة نوه بها أماري المستشرق والمؤرخ الايطالي الكبير قبل كلوزيو فوصف ابن

Von Wesendonk : Ibn Khaldûn, Ein arabischer (١)
Kulturhistoriker des XIV Jahrhunderts (Deutsche Rund-
schau, Januar 1923).

خلدون بأنه أول كاتب في العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » .
ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون في « الجبر الاجتماعي » ويرى
أنها موجودة في تلك العبارة التي يستهل بها ابن خلدون حديثه عن
أجيال البدو والحضر وهي : « ان اختلاف الأجيال في احوالهم
إنما هو باختلاف نحلتهن من المعاش »^(١) .

على أن كلوزيو ينوه بالأخص بنظريات ابن خلدون
الإقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربرى العظيم استطاع
في العصور الوسطى أن يكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية
والاقتصاد السياسى قبل كونسيديران وماركس وباكونين »^(٢)
ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية
وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن
طرق الملك وأنواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم
العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدرا للرزق (المعاش)
ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو في ذلك كله أن
ابن خلدون كان اقتصاديا مبتكرا يعرف مبادئ الاقتصاد السياسى
ويطبقها بذكاء وبراعة قبل أن يعرفها البحث الغربى بعصور
طويلة . ويختم بحثه بما يأتى : « إذا كانت نظريات ابن خلدون

(١) المقدمة : ص ١٠١

(٢) كونسيديران اشتراكى فرنسى له عدة مؤلفات في الاشتراكية (١٨٠٨ —
١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادى واشتراكى المانى كبير ومؤسس الاشتراكية
المتطرفة ، ومؤلف أعظم كتاب في الاشتراكية (رأس المال) ، (١٨١٨ — ١٨٨٣) .
وباكونين اجتماعى واقتصادى روسى ومؤسس مبدأ اللاحكومة (١٨١٤ — ١٨٧٦) .

عن حياة المجتمع المعقدة تضعه في مقدمة فلاسفة التاريخ ، فإن فهمه للدور الذي يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه في مقدمة علماء الإقتصاد المحدثين» (١) .

— ٤ —

ومن أحدث البحوث النقدية في دراسة ابن خلدون رسالة للأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ بجامعة كورنل بأمریکا؛ درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعي (٢) . ويرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضع في صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلي ، ونقولاوس الدمشقي أو تروجوس يومبيوس ممن كتبوا في القرن الأول الميلادي ، أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتيرر وشلتسر، هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الانتفاع بالمصادر القديمة أو في الرواية الأصلية؛ ولو أن ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسي ، لكان أثرا ينبي عن همة لا تنفد، وغزارة في المصادر، وحكم سديد، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدرا نفيسا للرجوع؛ بل لكان في عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخاري والمسعودي والطبري وابن الأثير. على أن حق ابن خلدون في الشهرة الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذي كتبه مقدمة لتاريخه؛ فهنا تبدو عبقريته في روعة

S. Colosio: Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun (١)
(Revue du Monde musulman ; XXVI - 1914).

N. Schmidt: Ibn Khaldûn; Historian, Sociologist (٢)
and Philosopher.

بهاؤها، وهنا ينثر بيدن نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الأستاذ شमित أن ابن خلدون هو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته، وهو بلا ريب صادق حين يقول إن أحدا من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه، وإذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء أعظم وأغزر، فإننا مع ذلك نستطيع اليوم أن نقول إن ابن خلدون كان بحق أول كاتب استطاع أن يعترف بموضوع التاريخ بهذه الصورة، وأن ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث فى الحقائق التى تقع فى دائرته . بل لم يقل أحد غير ابن خلدون إن التاريخ علم خاص بموضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان . فإذا كان يجدر بنا أن نتوسع فى فهم التاريخ الى هذا الحد، وإذا كان التاريخ علما، فإن التونسي العظيم الذى ابتكر هذا رأى ودافع عنه ليس له سلف فيما يظهر، ومن حقه أن يعتبر أنه المكتشف . وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته وأكثرها طرافة، وإن كان ذهنه النافذ قد شق طرقا جديدة فى نواح كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون فى دراسة الدول وقيامها وسقوطها أن أسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والأطماع، والى الأغراض والغايات، والى قوة الإرادة، وقوة الذهن لدى الأفراد؛ ولاحظ أن تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التى تنتمى إليها، ولكنها تخضع أيضا للظروف الاجتماعية العامة . وقد حمله ذلك على أن يبحث العوامل التى تؤثر فى هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها، وانتهى الى

أنها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ أيضا أن هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالإقليم ، والماء ، والأرض ، والموقع ، والغذاء . وإذا فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسى ، أن ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ؛ ولكي نفهم هذه يجب أن نحسب حسابا للعوامل الطبيعية ، ومن ثم كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ ، إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الإنسانى ، وإذا فهو علم الاجتماع . ثم يقول الأستاذ شмит إن ابن خلدون رغم طابعه الإسلامى إنما هو فيلسوف مثل أوجست كونت ، وتوماس بيكل وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هيجل^(١) تحليلا للقضاء والقدر . وإذا كان يذكّر خلال بحثه كثيرا من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكّرهما فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه فى بحثه متفق مع نصوص القرآن .

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فإن الأستاذ شмит يرى مع معظم النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع ، ويرى بالأخص مع جمبلوكتش أن الاجتماع وجد قبل أوجست كونت بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب فى تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وأنه فيما عالج من خواص العادة والإقليم ، والأرض ،

(١) توماس بيكل كاتب ومؤرخ اجتماعى انكليزى ، وله مؤلف شهير فى تاريخ الحضارة الانكليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزى ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهيجل فيلسوف المانى كبير ، درس فلسفة الدين والروحيات والالهيات (١٧٧٠ — ١٨٣١) .

والغذاء، قد سبق مونتسكيو وبكل وسينسر وغيرهم .
وينقل الأستاذ شमित إلينا هذه الكلمة عن العلامة الإسبانية
التاميرا : « كفى أنه في القرن الرابع عشر، حينما كانت دراسة
التاريخ الأوربية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتى
يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كُتب كتاب كالمقدمة ،
دُرست فيه وعرضت كل المسائل ، التى غدت فيما بعد، أهم مهام
المؤرخين المحدثين » (١) .

* * *

ونكتفى بما قدمنا من آراء النقد الغربى فى تراث ابن خلدون
وتفكيره، ومما تقدم نرى أن النقد الغربى يرتفع بتراث ابن خلدون
الى أسمى مكانة من التقدير والإعجاب، ويضع تفكيره بين أرفع
وأأنفس ثمرات التفكير البشرى .

(١) راجع رسالة الأستاذ شमित المشار إليها ص ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٤

الفصل الخامس

ابن خلدون ومكيافيللي

أوجه الشبه بين مكيافيللي وابن خلدون . فلسفة مكيافيللي الاجتماعية كما يعرضها في كتاب « الأمير » . صلة مباحثه بموضوع السياسة الملكية الذي عالجها العرب . الناحية العملية الجافة في فلسفته . نماذج من آرائه في خلال الأمير الأمثل . عنصر القسوة والعنف في الفلسفة المكيافيلية . التقاء ابن خلدون ومكيافيللي في مواطن كثيرة . ابن خلدون أستاذ المدرسة المكيافيلية . هل تأثر مكيافيللي بتفكير ابن خلدون أو غيره من المفكرين المسلمين . هل يكون الحسن بن الوزان صلة هذا التأثير . بعد هذا الفرض . المفكران كلاهما مبتدع مبتكر .

— ١ —

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن ، وضع نيكولو مكيافيللي المؤرخ والسياسي الإيطالي (١) كتابا يتبوأ في التفكير الغربي مكانة تلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الاسلامي . ذلك هو كتاب « الأمير » (Il principe) ، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بدیعة من التفكير السياسي والاجتماعي ، تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق . وإذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه

(١) نيكولو مكيافيللي (Nicolo Machiavelli) كاتب ومؤرخ وسياسي إيطالي كبير . ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فيرنزا (فلورنس) وتوفي بها سنة ١٥٢٧ واشتغل حيناً سكرتيراً للسياسة الخارجية في حكومة فيرنزا وكلف بعدة مهام سياسية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولما عاد آل مديتشى لحكم فيرنزا سنة ١٥١٢ قبض عليه بتهمة =

المادى، فان بينهما كثيرا من أوجه الشبه المعنوى، وبين الذهنيين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التى تكون كل فيها، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الإجتماعية، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ.

ونستطيع أن نرجع كثيرا من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظميين الى تماثل عجيب فى العصر والظروف السياسية والاجتماعية التى عاش كل منهما فيها. فقد كانت الإمارات والجمهوريات الايطالية التى عاش ميكافيللى فى ظلها تعرض فى إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التى تعرضها الممالك المغربية أيام ابن خلدون، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها، وطموح كل منها الى افتتاح الأخرى، وتقلب إماراتها ورياساتها بين عصابة من الزعماء والمتغلبين. وقد اتصل ميكافيللى بهذه الدول، وقضى عصرا فى خدمة احداها وهى وطنه فيرنتر (فلورنس) وانتدب لمهام سياسية مختلفة، واستطاع أن يدرس عن كثب كثيرا من الحوادث والتطورات السياسية التى تعاقبت فى عصره، وأن يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التى عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته.

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقا من المفكر

= التآمر وعذب ثم أفرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر. وعندئذ اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه «الأمير» وتاريخ فيرنتر ومقالات عن ليشى المؤرخ الرومانى؛ وعدة رسائل سياسية وقطع مسرحية.

الايطالى . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعلمها على ضوء التاريخ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن ميكافيللى يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعا معينة من الدول هى التى يعرضها التاريخ اليونانى والرومانى القديم ، وتاريخ ايطاليا فى عصره ، ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذى يحكم الدولة ، وما يلحق بها من الحلال الحسنه أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءا صغيرا فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذى يدرس فيه أحوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى فى هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على ميكافيللى تفوقا عظيما ، ويتعدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية أعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية ، وإن كان ميكافيللى من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون فى سلاسة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، ورواء الأسلوب .

كتب ميكافيللى كتابه « الأمير » سنة ١٥١٣ وأهداه الى لورنزدى مديتشى « الأنخم » أمير فيرنترا ، وهو يشير الى غرضه من وضع كتابه فى قوله للأمير فى خطاب الإهداء : « ومع انى أعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فإنى أعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك فى قبوله ، فلست أستطيع فى إهدائك خيرا من أن أقدم اليك فرصة لتفهم فى أقصر الأوقات كل ما عرفته

خلال اعوام طويلة، وفي غمار من المتاعب والأخطار» وفي قوله :
«فتناول يا ذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذي
أرسلها به، وإنك اذا قرأته بامعان وتأمل، فسوف تعرف خالص
رغبتي في أن تظفر بهذه العظمة التي يمني بها حسن الطالع وتمنى بها
خلالك»^(١). واذن فقد أراد ميكائيلي أن يقدم بكتابه «الأمير»
مرشدا لأمرء عصره يرشدهم الى أمثل طرق الحكم، وأمثلة
الوسائل لسيادة الشعوب التي يحكمونها. وميكائيلي يستمد آراءه
ونظرياته من حوادث التاريخ القديم، وبالأخص من حوادث
عصره التي شهدها وخبرها، ويرتب عليها أحكاما وقواعد عامة كما
يرتب ابن خلدون مثل هذه الأحكام والقواعد على دراسته للمجتمع،
ويبسط ميكائيلي دراسته في بحوث موجزة، ويبدأ بالحديث عن
أنواع الإمارات، ووسائل اكتسابها، وعن الوسائل التي تحكم بها
المدن أو الامارات التي كانت تعيش في ظل قوانينها قبل أن تغلب،
وعن الامارات التي تقوم بالفتح وكفايات الأمير الشخصية،
وعن تلك التي تغنم على يد آخرين أو بطريق الحظ، أو تلك التي
تغنم بالغدر والخيانة، وعن الامارات المدنية والدينية، وعن أنواع
الجيوش والجنود المرتزقة، وما يجب أن يعرفه الأمير عن فن
الحرب. ثم يتناول بعد ذلك شخصية الأمير، وما يحمده فيه من
الحلال وما يؤذم، وعن الكرم والشح، والرأفة والقسوة، وعن
الطريقة التي يجب أن يحفظ بها الأمرء وعودهم، وعمما يجب
عليهم لتجنب بغض الشعب واحتقاره، وما يجب عليهم لاكتساب

(١) كتاب الأمير The Prince الترجمة الانجليزية طبعة إفريمان ص ٢ و ٣

الشهرة والمجد، وأخيرا يتحدث عن حجاب الأمير (سكرتاريته) وعن وجوب تجنب الملقب، وعن الأسباب التي فقد بها أمراء إيطاليا دولهم، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع في سير الشؤون البشرية، ثم ينتهم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم.

تلك هي المباحث التي جعلها ميكافيللي قوام فلسفته عن الدولة والأمير. ويبدو بالأخص مما كتبه عن «الأمير» أنه يعالج موضوعا عالجته المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة، هو موضوع «السياسة الملكية» وهو موضوع ينتظم منذ القرن الثالث الهجري في التفكير الاسلامي الى بحث أو علم خاص، هو علم السياسة على نحو ما بينا في فصل سابق. وقد رأينا مما تقدم أن «السياسة» كانت تفهم عند العرب في العصور الأولى بمعنى ضيق جدا هو شرح الخلال الحسنة التي يجب أن يتصف بها الأمير، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يصلح لرئاسة الدولة وتبوء الملك، ولكي يستطيع الحكم بأهلية وكفاية. ثم توسع المفكرون المسلمون في فهم معنى «السياسة» وقسموها الى عدة أنواع، وتناولوا «السياسة الملكية» من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الإدارية، وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية، وتحدثوا عن الخطط السلطانية. وظاهر ان ما يتناوله المفكر الايطالي من خواص الأمير وخلالها وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري. من ذلك ما كتبه ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» والماوردي في كتاب «الأحكام

السلطانية» والطروشى فى كتاب «سراج الملوك» والغزالى فى كتاب «التبر المسبوك» ثم ابن الطقطقى فى كتاب «الآداب السلطانية». وهو موضوع تناوله ابن خلدون فىما تناول من أحوال الدول العامة والملك ، إذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والإمامة ، وعن مختلف المذاهب والآراء فى حكم الإمامة ثم عن الخطط السلطانية^(١) ، وحديثه فى ذلك يمتاز عن حديث أسلافه بما يتخلل بحته وتدليله من الملاحظات والتأملات الإجتماعية التى لم يوفق إليها باحث قبله .

على أن ميكافيللى يمتاز فى بحته بروح عملية جافة . وبينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الأمير أو الحاكم كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما يجب أن تكون ، اذا بالمفكر الايطالى ينظر الى الأمير الأمثل نظرة عملية محضه . فيصفه كما هو فى الواقع ، ويتصور خلاله المثلى فىما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما أحرز الأمير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل ، دون تأثر بما اذا كانت هذه الصور والخلال تتفق مع مبادئ الأخلاق المثلى كما فهمت خلال العصور . ومن هنا تستمد فلسفة ميكافيللى لونها القاتم ، وتوصم آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التى جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال للسياسة الغادرة التى لا ضمير لها ولا وازع ، والتى جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الانسانية والأخلاقية . وإلى القارئ بعض نماذج من تلك الآراء التى طبعت فلسفة ميكافيللى ، وأميره الأمثل

(١) راجع المقدمة : ص ١٥٦ و ١٥٨ الى نهاية الباب .

بذلك الطابع الأسود :

١ — « ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل التي لا يمكن دونها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة ، ذلك إنه إذا بُحث كل شيء بعناية ، ألفينا أن شيئاً يبدو كالفضيلة ، إذا اتبع ، فانه يؤدى الى خرابه (أى الأمير) وألفينا شيئاً آخر يبدو كالرذيلة ، اذا اتبع فانه مع ذلك يؤدى الى سلامه ورخائه » .

٢ — « ليس أكثر تبديداً للمال من الجود والبذخ ، إذ سرعان ما تعجز عن المضى فيهما ، وتغدو إما فقيراً أو محتقراً ، أو تغدو إذا أردت أن تجتنب الفقر ، جشعاً مكروهاً . ويجب على الأمير أن يحرص قبل كل شيء على ألا يكون محتقراً أو مكروهاً . وإذا خفي أن يشتهر الأمير بالوضاعة التي تثير اللوم دون بغض ، من أن يرغم الانسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود ، على أن يوصم بالجشع الذى يثير اللوم والبغض .

٣ — كان شيزارى بوجيا يعتبر قاسياً ، ومع ذلك فإن قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووجدتها وردت اليها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل ، لرأيت أنه كان أكثر رحمة من الشعب الفيرنتسى الذى أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة ، فترك « بستويا » حتى خربت ، وإذا ما دام الأمير قادراً على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء ، فليس عليه أن يهتم بوصمة القسوة ، لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يفرطون فى استعمال الرحمة ، فتشور القلاقل ، ويعقبها القتل والنهب .

٤ — « وهنا يبدو سؤال : هل خير أن يُحب الإنسان من أن يرهَّب أو يرهَّب من أن يحب؟ ويمكن أن نجيب بأنه من المرغوب أن يكون الإنسان محبوبا مرهوبا ، ولكن ما دام اجتماعهما في شخص واحد غير ممكن ، فإنه لخير وأكثر سلامة أن يرهَّب الإنسان من أن يحب ، إذا وجب أن يتصف بإحدى الصفتين » .

٥ — « لا يستطيع الأمير العاقل ، وليس عليه أن يحفظ العهد ، إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطعه وجود » .

٦ — « وإذا فليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها ، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه يتصف بها ... ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد أن يراعى كل الأمور التي يُقدر الناس من أجلها ، لأنه كثيرا ما يرغم لكي يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصدقة والإنسانية والدين . وإذا فمن الضروري أن يكون عقله متأهبا ليعمل طبقا لتقلب الريح والحظ » .

٧ — وقال مشيرا الى سياسة ملك اسبانيا فرديناند الكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : « إنه ينتحل الدين دائما عذرا للقيام بأعمال عظيمة ، وقد ثابر بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه » . (١)

(١) راجع الترجمة الانكليزية لكتاب الأمير The Prince — ص ١٢٣ و ١٣٠ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٧٨ (الطبعة المشار اليها) .

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكيافيلية في تصوير الدولة والأمير . وهي فلسفة تقوم على الحقائق العملية ، وتحل هذه الحقائق رغم جفاءها وروعها المكان الأول في بناء الدولة وفي سياسة الأمير . فالنفاق ، والشح والوضاعة ، والقسوة والإرهاب ، والغدر والنكث بالعهد ، وإهدار الإخلاص والصدقة والأمانة والدين ، وما إليها مما ينافي المثل الفاضلة ، وتأباه الأخلاق والإنسانية ، ليس مما تنكره الفلسفة المكيافيلية ، ولا مما يشين السياسة التي تقوم عليها ، ومن ثم كان الأمير والسياسي الأمثل في نظر مكيافيلي طغاة لجأوا في تأييد سلطانهم الى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى بورجيا (دوق فالنتينو)^(١) . ويتناول مكيافيلي طرفا من حياة شيزارى بورجيا الذي عرفه واتصل به في رسالة خاصة ، ويبدى إعجابه بتلك الخطط والوسائل الدموية التي ابتدعها ودبرها شيزارى للبطش بخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدرا وغيلة . ومن ثم كان ذلك الطابع الأسود الذي ما يزال يدمغ «السياسة المكيافيلية» الى عصرنا . بيد أنه من الحق أن يقال إن المفكر الايطالى يبدى في صوغ فلسفته كثيرا من القوة والبراعة وبعد النظر ، وإن هذه النظريات والمبادئ التي قد يحكم عليها من الوجهة النظرية الخالصة ،

(١) البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا تولى البابوية من سنة ١٤٩٢ الى وفاته سنة ١٥٠٣ ، وابنه شيزارى طاغية رومانيا وبعض الولايات الايطالية الأخرى ، ولد سنة ١٤٧٦ وتوفي سنة ١٥٠٧ بعد خطوب وحوادث عظيمة . واشتهر بالجرأة والغدر والقسوة الرائعة .

كانت وما زالت على كر العصور قوام السياسات الظافرة، وما تزال
الى يومنا عنوان السياسة العملية القوية .

— ٢ —

يتناول ابن خلدون كما قدّمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة
ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى، ويتفوق على ميكافيللي تفوقا
عظيما في معالجته من الناحية الاجتماعية . ويلتقي المفكران العظامان
في مواطن كثيرة . مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته
عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم، ثم أقواله عن آثار البطش
والسياسة العاسفة في نفوس الشعب، وعن خلال الأمير وتطرفه
أو توسطه فيها، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند، وعن منافسة
الأمير للرعية في التجارة والكسب، وعن تطلع الأمير الى أموال
الناس وأثر ذلك في حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل الى
الدولة وامتداد يد الجند الى أموال الرعية، وكذا ما يقوله عن كسبة
(سكرتارية) السلطان^(١) فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها
ميكافيللي أو يقترب منها، سواء في كتابه الأمير أو في كتاب آخر له
هو تاريخ فيرنتر (Istorie Fiorentine) نتخلله تأملات فلسفية
 واجتماعية كثيرة^(٢) . وقد لا يتفق ميكافيللي مع ابن خلدون في الرأي
أو في منحى التفكير دائما، ولكن كثيرا مما يقوله المفكر المسلم يتردد

(١) راجع المقدمة: ص ٧ و ١٥٧ و ١٥٨ و ٢٣٥ و ٢٣٩ و ٢٤٨

و ٢٠٥ و ١٤١

(٢) قارن ما كتبه ميكافيللي في موضوعات مماثلة في كتاب «الأمير» ص ٩٨

و ١٠٨ و ١١٨ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٩ و ١٨٣ وغيرها .

صداه فيما يقوله المفكر الايطالى . فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التى تناول ميكائيللى بعده بنحو قرن بعض نواحيها ، وهو بالأخص صاحب الفضل الأول فى فهم الظواهر الاجتماعية ، وفى فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها ، وترتيب القوانين الاجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمى الفائق .

قال العلامة الاجتماعى جمبلوكتش : « ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها ميكائيللى بعد ذلك الى الحكام فى كتابه «الأمير» . وحتى فى هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل ، وفى صبغتها الوقعية الحشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجا للايطالى البارع الذى لم يعرفه بلا ريب » .^(١) وقال استفانو كلوزيو مقارنا ابن خلدون بميكائيللى : « إذا كان الفلورنسى العظيم (ميكائيللى) يعلمنا وسائل حكم الناس فإنه يفعل ذلك كسياسى بعيد النظر ، ولكن العلامة التونسى (ابن خلدون) استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية كاتقصادى وفيلسوف راسخ ، مما يحمل بحق على أن نرى فى أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » .^(٢)

وقد نتساءل أخيرا ، هل وقف المفكر الايطالى على شئ من تراث ابن خلدون واسترشد به ، أم وقف على شئ من آثار المفكرين

Gumplowicz : Aperçus sociologiques (p. 217). (١)

Colosio : Introduction à l'étude d'Ibn Khaldoun (٢)
(ibid).

المسلمين في موضوع السياسة الملكية وانتفع بها ؟ نعتقد مع العلامة
جبلوقتش أن ميكافيللي لم يعرف حين كتابة « الأمير » شيئاً عن
ابن خلدون أو عن آثاره ، ولم يعرف من جهة أخرى شيئاً من
آثار المفكرين المسلمين في موضوعه . صحيح أن بعض نواحي التفكير
الإسلامي كانت معروفة في إيطاليا قبل ميكافيللي وفي عصره ،
وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمي الأندلس وشمال إفريقيا
وبين المجتمعات الفكرية في إيطاليا ، وكانت آثار إسلامية كثيرة
قد ترجمت يومئذ إلى اللاتينية . ولكن لا نلمح في أثر ميكافيللي
شيئاً يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أى مفكر مسلم في موضوعه .
وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ
وتحليله ، واستقراء الحوادث ، وترتيب القوانين الاجتماعية ، فذلك
يرجع كما قدّمنا إلى تقارب عظيم بين الذهنيين ، وإلى تماثل في العصر
والظروف التي عاش فيها كل منهما ، وإلى تماثل في الخبرة السياسية
التي اكتسبها كل منهما ، بخوض حوادث عصره والاتصال
بأمرائه وساسته . وربما يكون ميكافيللي قد عرف شيئاً عن ابن
خلدون ومقدمته في أواخر حياته بعد أن وضع كتابه « الأمير » بنحو
عشرة أعوام ، أعني حوالى سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤ ، ففي ذلك
الحين كان الكاتب الأندلسي المتنصر ، الحسن بن محمد الوزان
المعروف باسم ليون الإفريقي Léo Africanus يقيم في رومة ويتجول
في شمال إيطاليا . وهو غرناطي ولد حوالى سنة ١٤٩٥ م ، ونشأ
في فاس وتولى لبلاطها بعض المهام السياسية ، ثم حج إلى مكة
سنة ١٥١٦ ، وعاد بطريق قسطنطينية ، وفي أثناء ركوبه البحر

الى المغرب أسرته عصابة من لصوص البحر الصقليين ، فأخذ الى رومة حيث نصره البابا باسم «يوهانس ليو» أو يوحنا الأسد . وفي رومة انقطع للبحث والتأليف ، ووضع قاموسا عربيا لاتينيا ، وألف كتابه الشهير في وصف إفريقيا ، وترجمه بعد ذلك الى الإيطالية . وكان في مدينة بولونيا بشمال ايطاليا على مقربة من فيرنثرا سنة ١٥٢٤ حسبا يقرر في خاتمة قاموسه اللاتيني الذي توجد منه نسخة بخطه في الإسكوريال^(١) . ومن الممكن بل لعنه من المرجح أن يكون ابن الوزان قد التقى بميكافيللي وعرفه في رومة باعتباره من أعلام التفكير والكتابة يومئذ . وكان ميكافيللي بالفعل في رومة سنة ١٥٢٥ ، قصدها ليرفع كتابه «تاريخ فيرنثرا» الى صديقه وحاميه البابا كلنمضوس السابع (جوليانو دي مديتشي) . ولو صح هذا اللقاء والتعارف لكان ثمة مجال للقول بأن ميكافيللي قد وقف على شئ من آثار التفكير الاسلامي التي لا بد أن يكون ابن الوزان قد أذاعها وتحدث عنها بين أصدقائه الإيطاليين ؛ ومن المرجح أن يكون ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل هذا الحديث ، لاسيما وقد كان صيته ما يزال قويا ذائعا في إفريقية والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس . على أنه مهما كان من شأن هذه الفروض ، فلسنا نستطيع أن نقول إن ميكافيللي قد انتفع في صوغ فلسفته السياسية والاجتماعية بشئ من آثار التفكير

(١) راجع معجم المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال - Casiri :

theca Arabo - Hispana Escorialensis (I, P. 172). ففيه تنقل

هذه الخاتمة .

الإسلامي ؛ ولسنا نلمح في كتابه أثرا لهذا التفكير . وميكافيلي
ذهن مبتدع مبتكر بلا ريب ، كما كان ابن خلدون ذهننا مبتكرا
مبتدعا ، وقد شق كلا المفكرين العظمين طريقه لنفسه ، وألهم
وحي نفسه ؛ وكان كتاب « الأمير » فتحا عظيما في تفكير عصر
« الإحياء » الأوربي (الرينيسانص) كما كانت مقدمة ابن خلدون
فتحا عظيما في التفكير الإسلامي .

الملاحى الاول

بيان فهرسى عن كتاب العبر

ظهور القطع الأولى من مؤلف ابن خلدون • نشر المقدمة فى باريس ومصر • إخراج بولاق للمؤلف كله • صيغة الإهداء فى النسخة المتداولة ومدلولها • ما ترجم من أثر ابن خلدون الى مختلف اللغات • ما يوجد من مخطوطات أثره •

— ١ —

لبث تراث ابن خلدون رغم أهميته ونفاسته حتى منتصف القرن الماضى محتجبا، بعيدا عن التداول العام إلا فقرات ومقتطفات صغيرة من مقدمته وتاريخه تنشر ترجمتها من وقت لآخر. وفى ذلك الحين بدأت العناية بنشر آثاره؛ فنشرت المقدمة، ونشرت قطع مختلفة من تاريخه • وظهرت أول قطعة كبيرة من آثاره بباريس سنة ١٨٤١ حيث نشر المستشرق نؤيل دى فرجيه مقتطفات من « كتاب العبر » تتضمن تاريخ بنى الأغلب ودولة الاسلام فى صقلية مع ترجمة فرنسية بعنوان Hist. de l'Afrique sous les Aghlabites et la Sicile sous la Domination musulmane. وفى سنة ١٨٥٨ ظهرت مقدمة ابن خلدون فى باريس فى ثلاثة مجلدات، أصدرها المستشرق كاترمير عن نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية، ضمن المجموعة المسماة « مذكرات ومقتطفات من مخطوطات مكتبة الملك » Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi. وهى تشمل ضمن هذه المجموعة، المجلدات السادس عشر الى

الثامن عشر . وفي نفس ذلك التاريخ نشرت المقدمة بمصر لأول مرة (سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨ م) بعناية الشيخ نصر الهوريني عن نسخة مخطوطة أخرى ، تتضمن بالدباجة فقرة إهداء للمؤلف لم ترد بنسخة باريس . ونشرت المقدمة في بيروت سنة ١٨٧٩ ، ثم نشرت بعد ذلك مرارا . وعينت مطبعة بولاق بإخراج أثر ابن خلدون (كتاب العبر) كله ، فظهر تباعا في سبعة مجلدات كبيرة ، وتم طبعه سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م) واعتمد في إخراجها على عدة نسخ مخطوطة كلها ناقصة ^(١) ، ولكنها تكمل بعضها بعضا ، ونقلت المقدمة عن نفس النسخة المخطوطة التي نقلت عنها طبعة سنة ١٢٧٤ هـ فجاءت متضمنة فقرة الإهداء المشار إليها . ولهذه الفقرة أهمية خاصة في التعريف عن تاريخ النسخة التي تضمنتها وعن قيمتها ؛ ففيها يتقدم المؤلف بإهداء هذه النسخة من كتابه الى خزانة «مولاه السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن من بنى مرين» ويقول إنه «بعثها الى خزانة الموفقة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملائكتهم» . والسلطان عبد العزيز المذكور هو ابن أبي العباس بن أبي سالم بن السلطان أبي الحسن ؛ تولى عرش المغرب الأقصى سنة ٧٩٦ هـ ، وتوفي في صفر سنة ٧٩٩ هـ . وإذا فقد وقع إهداء ابن خلدون كتابه للسلطان عبد العزيز في هذه الفترة ٧٩٦ - ٧٩٩ هـ . وقد انتهى البحث الحديث بأن وقف

(١) يوجد من هذه النسخ الناقصة بدار الكتب اثنان ، وتوجد أيضا بها مجلدات مخطوطة متفرقة من كتاب العبر . وتحفظ هذه النسخ بالأرقام الآتية : ١٨٥ م تاريخ ، و ٦٥ م تاريخ ، و ٦٦ م تاريخ ، و ١ ش .

على مجلدين من هذه النسخة التي بعثها ابن خلدون الى فاس لازالا بمكتبة جامع القرويين ؛ عثر بهما الأستاذ ألفرد بل Bel وذ كرهما ضمن الفهرس الذي وضعه لمكتبة جامع القرويين ، وأشار الى أن أحدهما يحمل صيغة الوقف ^(١) . وقد عاد الأستاذ ليثي بروقنسال فحقق صحة هذا الاكتشاف ، ونشر بحثه في المجلة الاسيوية مشفوعا بصورة فتوغرافية لصيغة الوقف المرقومة على غلاف أحد المجلدين ؛ والمجلدان هما الثالث والخامس (مما يقابل نسخة بولاق تقريبا) . والخامس يحمل صيغة الوقف ، وتاريخ هذا الوقف هو ٢١ صفر سنة ٧٩٩ هـ . وفي نهاية هذا المجلد إشارة من الناسخ تفيد أنه «نقل من الأصل المعتمد لمؤلفه» ^(٢) . وقد وقع إهداء ابن خلدون لهذه النسخة في نفس الوقت الذي أرسل فيه الظاهر برقوق سلطان مصر هديته الى سلاطين المغرب كأثر للصلات التي عمل ابن خلدون على عقدها بين بلاط القاهرة وقصور المغرب ؛ وأرسل ابن خلدون نسخة كتابه هذه الى المغرب مع رسل السلطان الظاهر ؛ وتوفي السلطان عبد العزيز في ذلك الحين . ولكن أبناء وفاته لم تكن قد وصلت بعد الى القاهرة . ومن المحقق أن هذه النسخة المهداة الى بني مرين سادة ابن خلدون وحماته الأوائل كانت من أتم نسخ

(١) Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El Quaruiyin à Fez (p. 6).

(٢) J. Asiatique (Juillet - Sep. p. 163 - 164.) . وقد نشرت جريدة الاهرام صورة هذه الوقفية (بعدها الصادر ٣ مارس سنة ١٩٣٣ بصحيفة الصور) وقدم اليها الصورة السيد عبدالحى الكفانى أحد أ كابر علماء الغرب أثناء زيارته للقاهرة .

الكتاب وأوفاهما، إذ كان قد مضى على كتابة ابن خلدون نسخة كتابه الأولى نحو خمس عشرة سنة؛ وقد عني ابن خلدون أثناء مقامه بالقاهرة في هذه الفترة بتنقيح كتابه وتهذيبه والزيادة فيه؛ وشمل التنقيح والزيادة جميع أقسام الكتاب، ووصل ابن خلدون في تدوين أخبار الحوادث المعاصرة في كثير من المواطن الى سني ٧٩٥ و ٩٦ و ٩٧ هـ حسبما بينا فيما تقدم . وتوجد بدار الكتب (مجموعة مصطفى باشا) نسخة مخطوطه من كتاب العبر في عشرة مجلدات تنقص عن النسخة الكاملة مجلدا (المجلد السابع من المطبوع)، وتحتوي مقدمتها على صيغة الإهداء المشار اليها (ورقة ٤ من المجلد الأول) مما يدل على أنها قد تكون صورة مطابقة للنسخة الأصلية المهداة الى بلاط فاس (١) .

والخلاصة أن نسخة « كتاب العبر » المتداولة التي أصدرتها مطبعة بولاق عن النسخ الخطية المشار اليها، هي رغم كثرة أغلاطها المطبعية، من أتم النسخ التي انتهت اليها من أثر ابن خلدون .

— ٢ —

بعد أن نشرت مقدمة ابن خلدون في باريس بعنايه العلامة كاترمير سنة ١٨٥٨ ؛ جاء البارون دي سلان فترجم المقدمة الى الفرنسية، وهو العمل الذي كان يعتزمه كاترمير وحالت وفاته دون إتمامه . وظهرت ترجمة دي سلان الفرنسية بين سنتي ١٨٦٣ و ١٨٦٨ في ثلاثة مجلدات كبيرة بعنوان Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (Par M. de Slane Membre de l'Institut).

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم (٦٥ تاريخ م) .

واتبع دى سنان فى ترجمته النص الذى نشره كاترمير إلا فى مواطن قليلة جدا قارن فيها المخطوطات المختلفة . وصدر المقدمة بترجمة "للتعريف بابن خلدون" وأكمل ترجمته حتى وفاته بالاعتماد على المصادر المصرية المعاصرة (المقرئى والعينى وابن قاصى شهبه) . ويشكو دى سنان من أسلوب ابن خلدون ويقول إنه ركيك وغامض فى أحيان كثيرة، وإنه يستعمل الضمائر بكثرة تحول أحيانا دون فهم مقاصده^(١) والواقع أنه يوجد فى ترجمة دى سنان غموض كثير، ولكننا نعتقد أن ذلك لا يرجع دائما الى غموض النص الأصيل، وإنما يرجع فى معظم الأحيان الى ضعف الترجمة ذاتها .

كذلك نشر دى سنان قسما كبيرا من تاريخ ابن خلدون هو المتعلق بتاريخ الدول البربرية فى مجلدين كبيرين بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » (الجزائر سنة ١٨٦٣) ، ورجع فى نشر هذا القسم الى عدة نسخ مخطوطة، واختصر فيه فى بعض المواضع وأضاف اليه مقتطفات لمؤلفين آخرين . ونشر ترجمة فرنسية لهذا القسم فى أربعة مجلدات ظهرت بالجزائر سنة (١٨٥٢--١٨٥٦)

بعنوان Hist. des Berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique Septentrionale.

وترجمت المقدمة الى التركية منذ أوائل القرن الثامن عشر، ترجمها اليها پيرى زاده المتوفى سنة ١٧٤٩ م (١١٦٢ هـ) . وترجمت الى الفرنسية أجزاء أخرى من التاريخ، منها قطعة عن تاريخ بنى زيان Hist. de Benou Zayan ، ترجمها دوزى، وقطعة عن بنى

الأحمر ملوك غرناطة Hist. des Benou al Ahmar Rois de Grenade ، ترجمها جودفري دمومبين ، وقد نشرتا في المجلة الآسيوية (Journal Asiatique) وقطعة مطولة أخرى عن ملوك بني عبد الواد ترجمها المستشرق بل ، وظهرت بالجزائر في ثلاثة مجلدات بعنوان Hist. des Beni Abdel-Wad Rois de Telemcan وترجمت قطع الى الألمانية من ذلك ما ترجمه تيزنهاوزن عن

تاريخ بني عقيل : Die Geschichte der Oqailiden-Dynastie. وفصول عن تاريخ احتلال الفرنج لشواطئ سوريا أيام الصليبيين بقلم تورنبرج : Geschichte der Franken, welche die Kûsten und Grenzlaender Syriens besetzen. المقدمة والتاريخ بقلمى فون هامار وفون كريم . وظهرت أخيرا ترجمة المانية لآراء ابن خلدون عن الدولة بقلم ادوين روزنتال مقرونة بشروح وتعليقات تحت عنوان : Die Gedanken d'Ibn Khaldoun ueber den Staat.

وترجمت قطع من المقدمة الى الايطالية إحداها عن الكتابة العربية بقلم لانشى وأخرى عن تاريخ صقلية بقلم العلامة أمارى . وترجم الجزء المتعلق بتاريخ اليمن الى الانكليزية بقلم كاسلس كى (Kay) وشذور أخرى بقلم الأستاذ فلنت . وترجمت أيضا قطع مختلفة أخرى الى اللاتينية والروسية .

وتوجد نسخ مخطوطة من المقدمة في مكاتب برلين وليدن وفلورنس ولندنجراد والمتحف البريطانى وميلان وميونخ وباريس

وثينا . وتوجد نسخ مخطوطة من المؤلف كله أو بعضه بالقاهرة
بدار الكتب المصرية (وبها نسختان كاملتان تقريبا وبعض
مجلدات مفردة) ومكتبة الأزهر . وفي قسطنطينية في عثمانية
ويني جامع وابراهيم باشا . وفي فاس بجامع القرويين . وفي المتحف
البريطاني وأكسفورد وتورينو وتبليز وتونس والجزائر . وتوجد
نسخة كاملة من التعريف أو الرحلة بدار الكتب المصرية
(مصطفى باشا) ، وعننا نقلت بعض المكاتب نسخا فتوغرافية .
وهي الوحيدة فيما يظهر (١) .

(١) راجع وصف هذه النسخ الخطية وتواريخ كتابتها في فهرس هذه المكتبات .

الملاحق الثاني

ثبت بالمصادر

— ١ —

المصادر العربية

- كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون)، والمقدمة .
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (مخطوط) .
- مقدمة ابن خلدون، طبعة كاترمير (باريس سنة ١٨٥٨) .
- مقدمة ابن خلدون، (مصر) سنة ١٢٧٤ هـ .
- الملحة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية لابن الخطيب .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ .
- رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط) .
- أنباء الغمر في أنباء العمر لابن حجر (مخطوط) .
- المنهل الصافي لابن تغري بردى (مخطوط) .
- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوى (مخطوط) .
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .
- السلوك في دول الملوك للمقرئ (مخطوط) .

- الخطط والآثار للمقريزى .
 - إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى (مخطوط) .
 - عجائب المقدور لابن عربشاه .
 - تاريخ مصر لابن إياس .
 - حسن المحاضرة للسيوطى .
 - الأحكام السلطانية للماوردى .
 - قوانين الوزارة للماوردى .
 - الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى
(جريفزولد سنة ١٨٥٨) .
 - سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى وبهامشه التبر المسبوك للغزالى .
 - المنهج المسلوک فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن محمد .
 - عيون الأخبار لابن قتيبة .
 - رسائل إخوان الصفا .
 - آراء أهل المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى .
 - صبح الأعشى للقلقشندى .
 - مصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان .
-

المصادر الغربية

هذا ونشر فيما يلي ثبثاً بأهم المراجع والبحوث النقدية التي
ظهرت عن ابن خلدون وتراثه بمختلف اللغات الأوروبية :

Von Hammer-Purgstall : Ueber den Verfall des Islams
nach den ersten drey Jahrhunderten der Hidschat
(1812).

A. von Kremer : Ibn Chaldûn und seine Kultur-
geschichte der islamischen Reiche ; Wien 1879.

L. Gumplowicz : Ibn Khaldun, ein arabischer Soziologe
des 14. Jahrhunderts ; in Sociologische Essays.

T. J. de Boer : Ibn Chaldun : in Geschichte der Philoso-
phie im Islam ; Stuttgart 1901. p. 177-84.

Lewine : Ibn Chaldûn, ein arabischer Soziologe des XIV.
Jahrhunderts. (بالروسية)

Von Wesendonk : Ibn Khaldun, ein arabischer Kultur-
historiker des 14. Jahrhunderts, (Deutsche Rundschau
Januar 1923) والحققت ترجمتها العربية بقلم محمد عبد الله عنان بكتاب
فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

Müller : Der Islam ; II. p. 668 ff.

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur ; II,
p. 243. ff.

Wuestenfeld : Geschichteschreiber der Araber No. 456.

Rosenthal : Ibn Khalduns Gedanken über den Staat ;
München 1932.



Encyclop. de l'Islam : art.: Ibn Khaldoun par Alfred Bel.
Biographie Universelle t. XX. art. Ibn Khaldoun par S.
de Sacy.

Schulz : Ibn Khaldoun ; (art. au Journal Asiatique 1825).

Reinaud : Ibn Khaldoun ; dans Nouvelle Biographie
Générale (1858).

De Slane : Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun.

S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun.
(Revue du monde musulman XXVI, 1914.)

René Maunier : Les idées économiques d'un philosophe
arabe (Revue d'histoire économique et sociale, 1912.)

R. Maunier : Les idées sociologiques d'un philosophe
arabe au XIVème siècle ; (l'Egypte contemporaine,
1917, p. 31.)

Taha Hussein : La philosophie sociale d'Ibn Khaldoun.

وترجمتها العربية : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بقلم محمد عبد الله عنان .



Graberg de Hemsoe : Account of the great historical
work of the african philosopher Ibn Khaldoun. (Tran-
sactions of the A. R. S. 1833).

R. Flint : Historical philosophy, Edinbrough 1893. p.
157 ff.

N. Schmidt : Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and
Philosopher, New York 1930.



Ferreiro : Un sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma
Sociale anno III Vol. VI. Fasc. 4. 1886).

ورجعنا أيضا الى الكتب الآتية :

N. Machiavelli : The Prince.

„ : Florentine History.

Aristotles' : Politics.

Dozy : Recherches sur l'Hist. et la Littérature d'Espagne
au moyen âge.

Casiri : Bibliotheca Arabo- Hispana Escorialensis.

فهرس

الكتاب الأول

حياة ابن خلدون

١ - في المغرب والأندلس

٧٣٢ - ٧٨٤ هـ ، ١٣٣٢ - ١٣٨٢ م

صفحة

الفصل الأول : نشأة ابن خلدون ١١

(١) أسرته ١٢

(٢) نشأته الأولى ١٧

الفصل الثاني : ابن خلدون في بلاط فاس ١٩

(١) إفريقية في القرن الثامن الهجري ١٩

(٢) ابن خلدون والسلطان أبو عنان ٢٣

(٣) بقية أخباره في فاس ٢٧

الفصل الثالث : رحلة الأندلس ٣٥

الفصل الرابع : ذروة المغامرة ٤٢

الفصل الخامس : العزلة والتأليف ٥٤

٢ — ابن خلدون في مصر

صفحة	٧٨٤ — ٨٠٨ هـ ١٣٨٢ — ١٤٠٦ م
٦٤	الفصل السادس : ولاية التدريس والقضاء
٦٤	(١) ابن خلدون في القاهرة
٧٠	(٢) ولاية القضاء الأولى
٧٩	الفصل السابع : في دمشق وفي معسكر تيمورلنك
٧٩	(١) ابن خلدون وتيمور
٨٦	(٢) ولاية القضاء الثانية
٩٠	الفصل الثامن : ابن خلدون والتفكير المصري
٩٠	(١) الخصومة بينه وبين الكتاب المصريين
٩٦	(٢) ابن خلدون والمقرئ
١٠٠	(٣) مقامه بمصر وقبره

الكتاب الثاني

تراث ابن خلدون الفكري والاجتماعي

١٠٧	الفصل الأول : علم العمران كما يعرضه ابن خلدون
١٠٧	(١) علم العمران البشري
١١٠	(٢) مقدمة ابن خلدون

صفحة

الفصل الثانى : علم السياسة والمملك قبل ابن خلدون ... ١١٧

(١) ابن قتيبة والفارابى ١١٩

(٢) رسائل إخوان الصفا ١٢٠

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ١٢٢

(٤) سراج الملوك للطرطوشى ١٢٣

(٥) الفخرى لابن الطقطقى ١٢٥

الفصل الثالث : كتاب العبر والتعريف ١٢٩

(١) كتاب العبر أو تاريخ ابن خلدون ١٢٩

(٢) التعريف أو ترجمة ابن خلدون ١٣٧

(٣) مؤلفات أخرى ١٤٢

الفصل الرابع : ابن خلدون والنقد الحديث ١٤٤

(١) فيلسوف التاريخ ١٤٧

(٢) فيلسوف الاجتماع ١٥٠

(٣) ابن خلدون الاقتصادى ١٥٥

(٤) الفيلسوف الجامع ١٥٧

الفصل الخامس : ابن خلدون وميكافيللى ١٦١

(١) كتاب الأمير ١٦١

(٢) المفكران كلاهما مبتكر فلسفته ١٧٠

ملاحق

صفحة

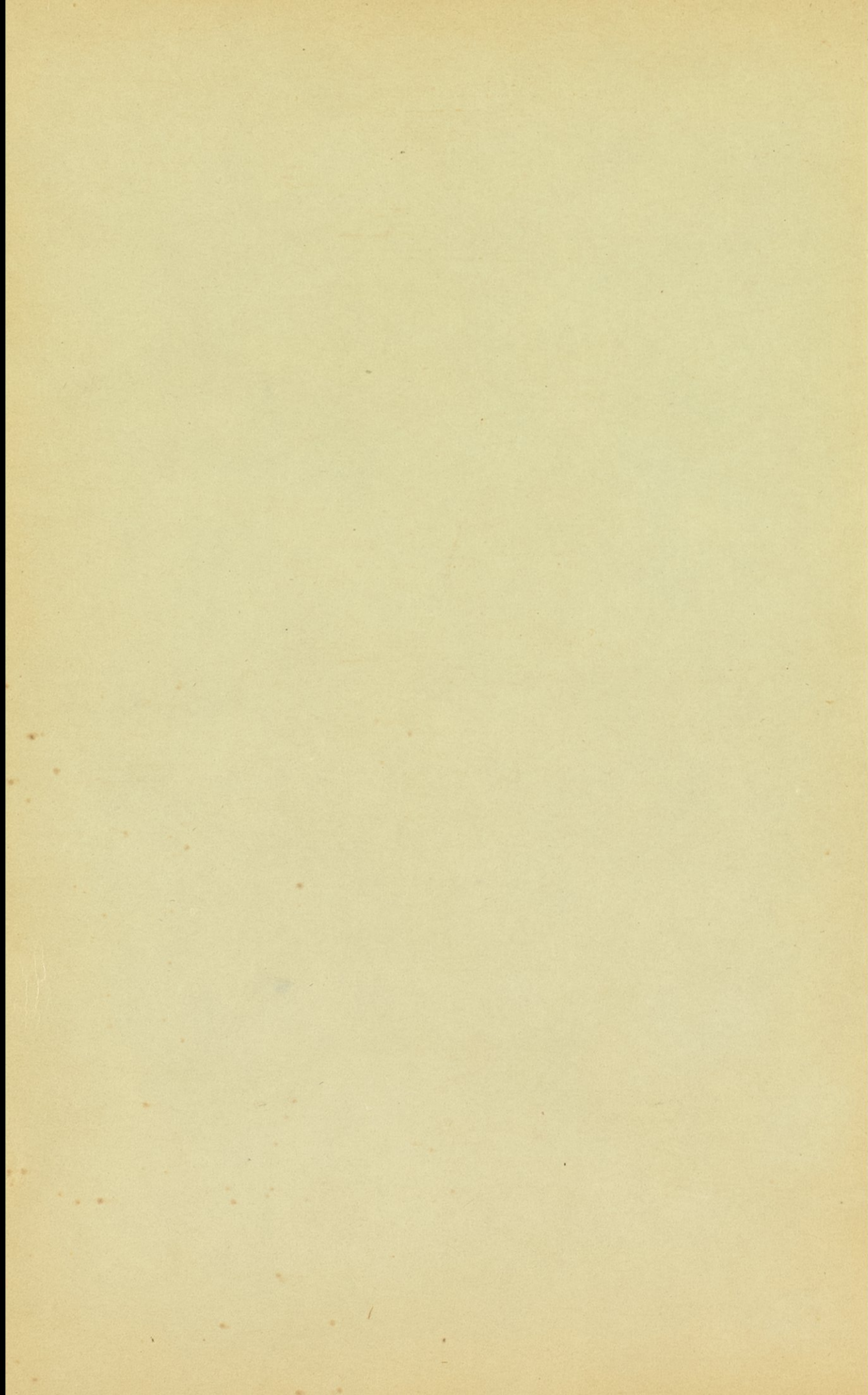
- ١٧٥ ١٠ — بيان فهرسى عن كتاب العبر
- ١٧٥ (١) أصول النسخ المتداولة...
- ١٧٨ (٢) التراجم المختلفة
- ١٨٠ (٣) المخطوطات
- ١٨٢ ٢ — المصادر العربية
- ١٨٤ ٣ — المصادر الغربية

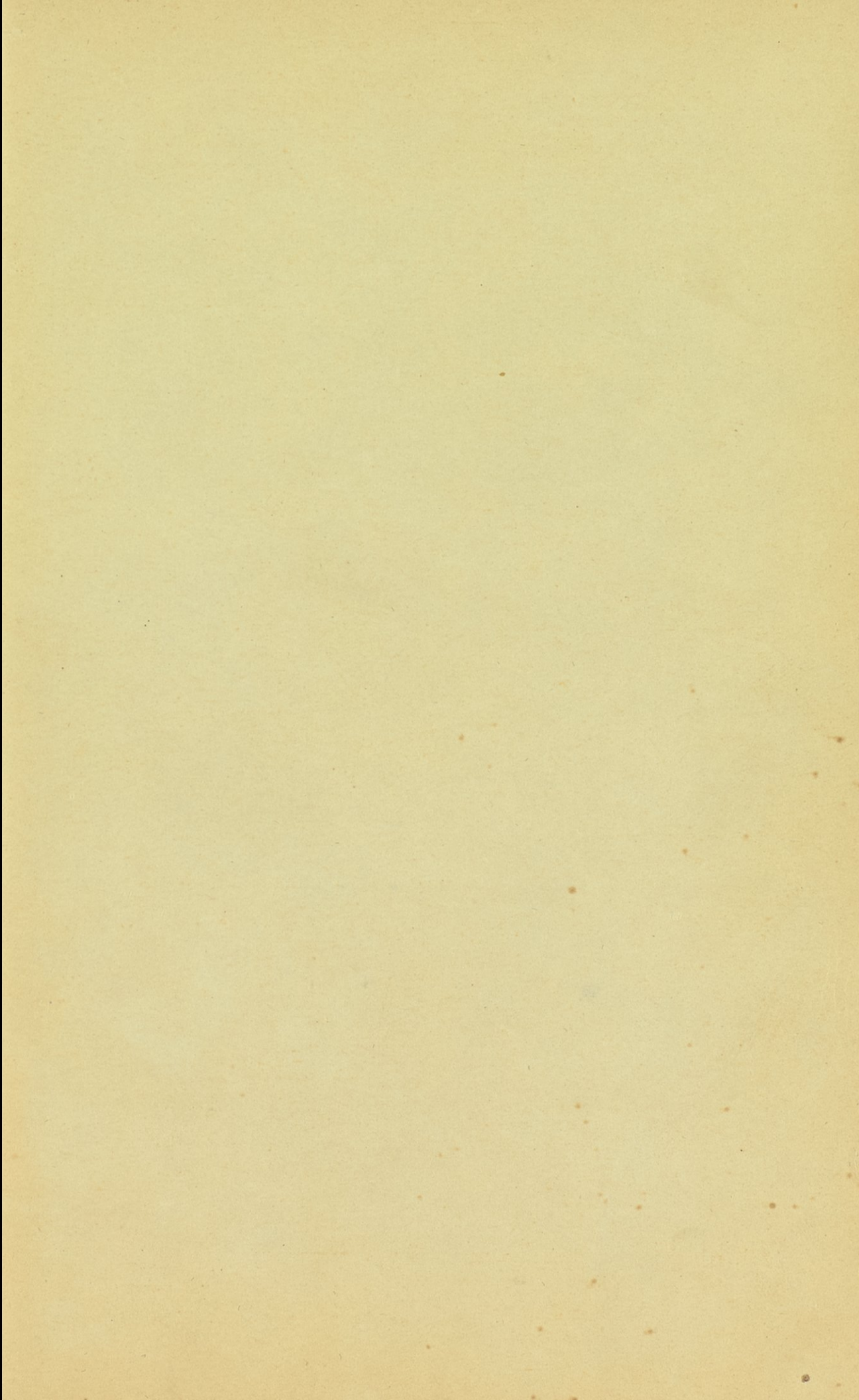


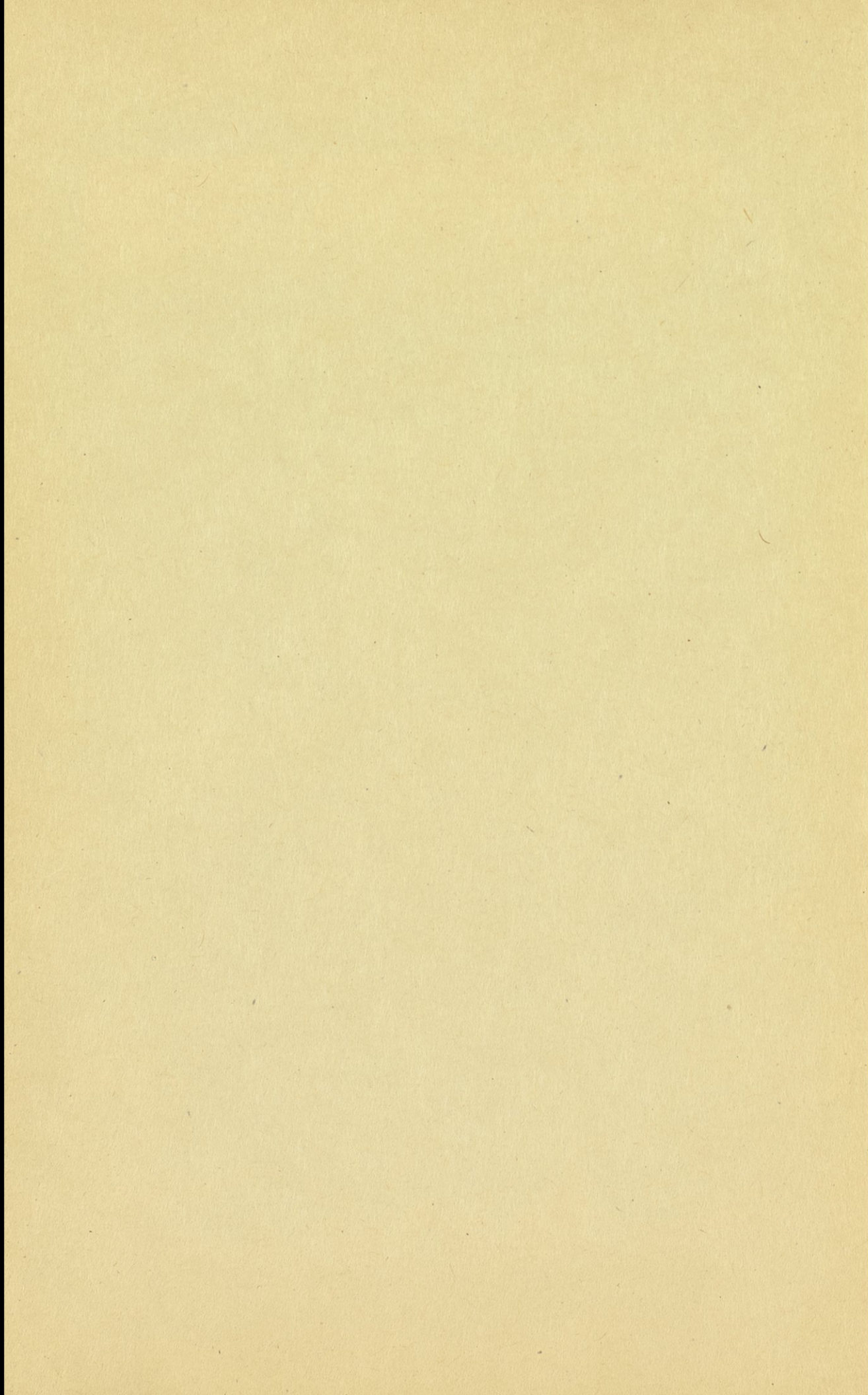
تم طبع كتاب "ابن خلدون" بمطبعة دار الكتب
المصرية في يوم الأحد ١٦ رجب سنة ١٣٥٢
(٥ نوفمبر سنة ١٩٣٣) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دارالكتب المصرية ٢٤/١٩٣٣/٣٠٠٠)







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

Books are due on the date indicated below, or at the

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0040584658

893.7 Ib56

En11

DUE DATE

GLX FEB 15 1995

GL/Rec FEB 16 1995

GLX MAY 31 1995

GL/Rec MAY 31 1995

201-6503

Printed
in USA

AUG 19 1947

